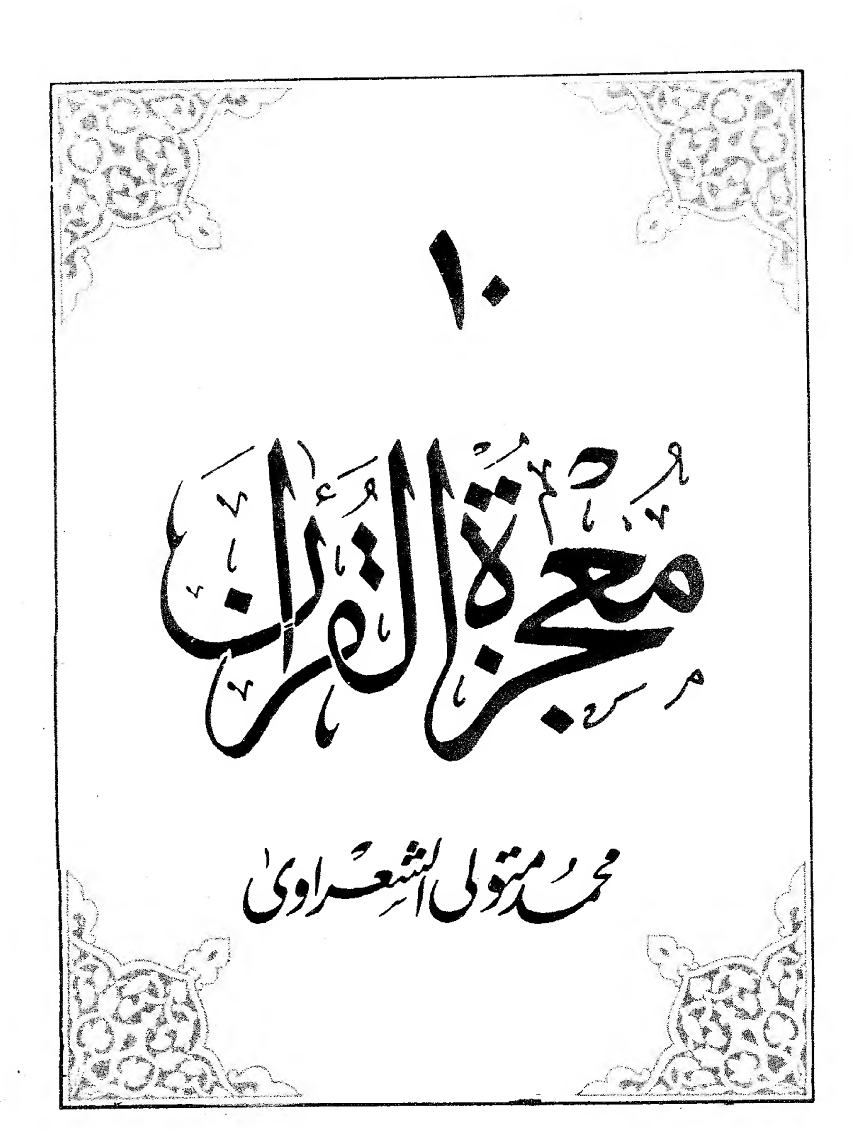
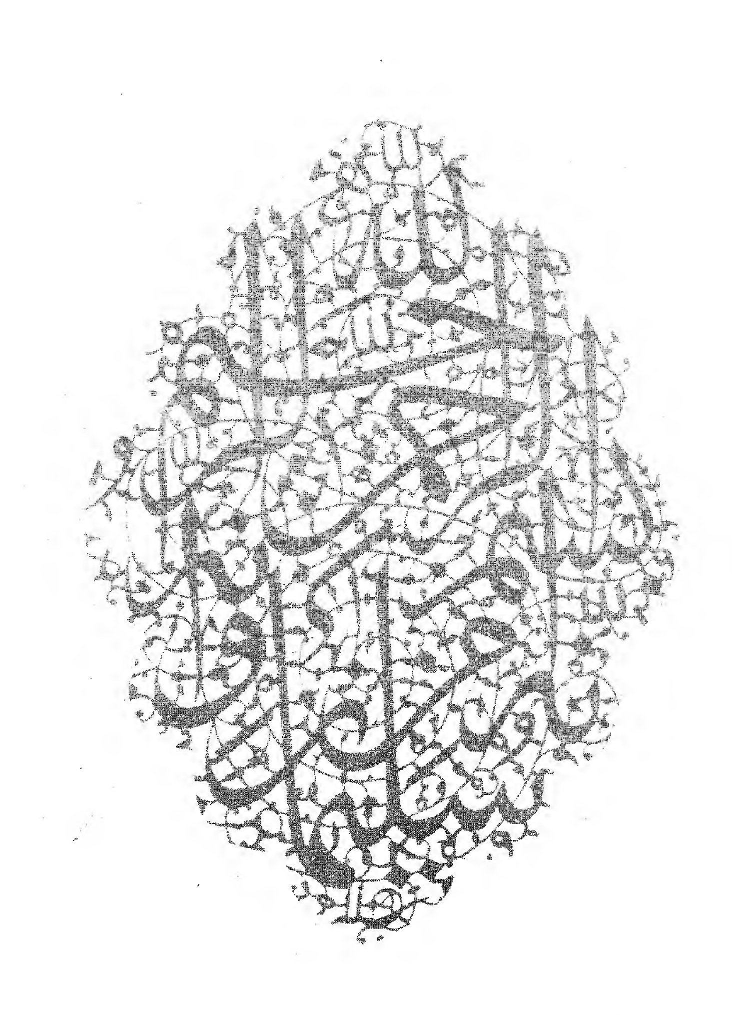

١٠
معجزة القرآن
محمد متولي الشعراوي





المقدمة

معنى يوم القيامة

لماذا الحديث عن يوم القيامة ؟ ذلك سؤال لابد ان نجيب عليه قبل ان نبدأ هذا الكتاب .. والجواب ان القيامة هى اساس الايمان .. وهى اساس العمل فى الدنيا .. وهى اساس منهج الله .. فلو انه لا توجد قيامة لكان المؤمن هو الخاسر فى هذه الحياة الدنيا .. ذلك ان المؤمن يحرم نفسه من شهواتها ويمتنع عما حرم الله .. ويتحمل المشاق فى الدنيا .. لا يمد يده إلى حرام .. ولا يحاول ان يحصل على مال بغير حق .. وإذا اشتهى شيئا حرمه الله نهى النفس عنه .. بينما غير المؤمن يطلق لشهواته العنان فيفعل ما يريد ويتمتع كما يشاء .. عاصيا لمنهج الله .. فإذا لم يكن هناك يوم حساب كان الخاسر هو المؤمن والرابح هو غير المؤمن الذى اعطى نفسه كل ما تشتهيه .

ولأن يوم القيامة هو الرادع لكل ظالم مفسد فى الأرض .. فالانسان قد يرتكب الجرائم فى الدنيا ويحكم خططه بحيث يفلت من العقاب الدنيوى .. او بحيث لا يقوم على ما فعل دليل .. واحيانا يستبد الظالم بالناس فيخضعون له جميعا ولا يقف واحد منهم ليقاوم ظلمه .. لذلك كان لابد لكى يكتمل العدل فى الكون .. ان يكون هناك

يوم يؤتى فيه باولئك المؤمنين الذين هربوا من العقوبة في الدنيا لينالوا اشد العذاب في الآخرة .. ولولا ساعة الحساب هذه ما ارتدع ظالم عن ظلمه .. ولا تردد قاتل في ان ينفذ جريمته .. ولا خاف مستبد وهو يفتك بالضعفاء .

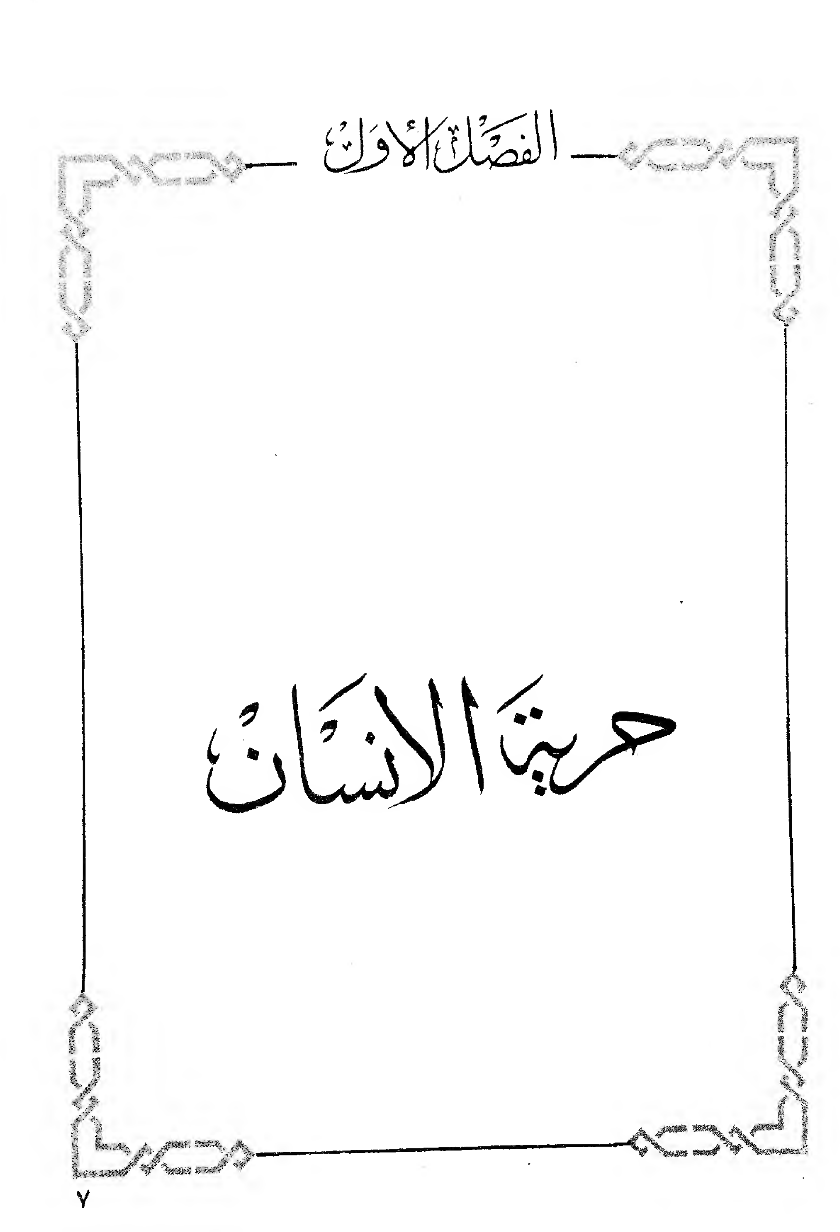
ولذلك فإن وقفة الحساب ضرورية .. لو لم تكن موجودة لطالب بها كل إنسان لأنها ميزان العدل في هذا الكون .. لكل من ارتكب ظلما في الأرض وافلت من العقاب .. وكل من نسى الله وانطلق باسباب الدنيا يفسد في الأرض .

ويوم القيامة هو اليوم الذى تزول فيه الأسباب .. ولا يصبح لأى واحد منا قوة ولا قدرة .. بل تذهب عنا كل اسباب الدنيا .. الذى تغره الأسباب في الدنيا .. لابد ان يتذكر هذا اليوم الذى سيذهب فيه كل هذا النفوذ .. والذى سيصبح فيه الانسان وحيدا أمام الله .. لا احد ينصره .. ولا شيء ينفعه إلا عمله .

وإذا ظهر الفساد في الدنيا وازداد .. فاعلم أن عدد الذين لا يؤمنون بالآخرة او ينسونها قد ازداد .. فإذا لم تؤمن بالآخرة فافعل ما شئت .. وكلما زاد العمل الصالح في الدنيا .. كان ذلك لزيادة الايمان باليوم الآخر .

وإننى اقدم هذا الكتاب .. علّ الذين عبدوا الدنيا ونسوا الآخرة يتذكرونها فيدخل الايمان إلى قلوبهم .. ويحسون بهول ما سيحدث فيكون ذلك رادعا لهم عن الظلم والفساد .. دافعا لهم إلى العمل الصالح والايمان .. لعل القلوب تهتدى .. ولعلنا نعرف جميعا ماذا ينتظرنا .. وما هى المواقف التى سنواجهها .. وما هى المشاهد التى سنراها .

والله اسال ان يهدينا جميعا إلى الطريق المستقيم .



الفصل الأول

حرية الانسان



إن الحديث عن يوم القيامة وأهوالها جدير بنا أن نتناوله فى أكثر من كتاب . . ورغم أن أحداث القيامة غيب عنا . . فإن الله سبحانه وتعالى شاءت رحمته أن يعطينا من الأحداث الحسية ما يقرب لنا معانى الغيب . . وذلك رحمة بالعقول البشرية من أن تضل أو تفتن . . وإذا كان هذا هو أحد المعانى التى نريد أن نبينها عن مشاهد يوم القيامة . . فإن هناك معنى آخر هو أننا جميعا محتاجون إلى التذكرة . . لابد أن نعرف يقينا . . أن هذه الحياة التى نحياها . . لا تحمل مفهوم الحياة التى يريدها الله سبحانه للانسان . . والله سبحانه وتعالى يقول :

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱسْتَجِيبُوا۟ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ ﴾

« من الآية ٢٤ من سورة الأنفال »

وإذا قرأنا هذه الآية الكريمة . . فإننا نتوقف عند قول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ إذا دعاكم لما يحييكم ﴾ . . ويبرز السؤال هنا إلى الذهن . . ألسنا أحياء فعلا ؟ . . أليس القرآن يخاطب الأحياء مصادقا لقوله تعالى فى سورة يس :

﴿ وَمَا عَلَّمْنَـٰهُ ٱلشِّعْرَ وَمَا يَنۢبَغِى لَهُۥٓ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْءَانٌ مُّبِينٌ ﴿٦٩﴾ لِّيُنذِرَ مَن كَانَ حَيًّا وَيَحِقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَى ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴾

« الآيتان ٦٩ و ٧٠ من سورة يس »

كيف يكون القرآن قد نزل للأحياء .. بينما هو منهج يدعو إلى حياة قادمة .. نقول إن الله سبحانه وتعالى جعل الحياة الدنيا مجرد اختبار للآخرة .. لأن الله الذى كرم الانسان ، ونفخ فيه من روحه ، وجعله خليفة فى الأرض ، يريد له حياة تليق بهذا المخلوق ، وبتفضيل الله له ، وبتسخير الله سبحانه وتعالى لكل ما فى السموات والأرض للانسان .

الانسـان سـيد الـكون

فالكون كله بقواه الهائلة التى تفوق قدرة الانسان ملايين المرات ، والتى تستطيع أن تهلكه فى لحظة واحدة .. الكون كله بتلك القوى الهائلة الموجودة فيه مسخر لخدمة الانسان .. الشمس تعطى أشعتها له ولا تستطيع أن تعصى .. والهواء يعطيه التنفس ، ولا يستطيع أن يرفض .. والبحار تعطيه الأمطار ولا تستطيع أن تقول لا .. والأرض تعطيه كل خيراتها .. فلا هى تقدر أن تمنع الزرع ، ولا أن توقف الثمار عن الوجود .. وهكذا نرى أن كل ما فى الكون مسخر لخدمة الانسان .. الانسان على إطلاقه .. مؤمنه وكافره .. العاصى والمطيع .

ولكن كل هذا فى دار الاختبار .. فالدنيا كلها ليست حياة الانسان الحقيقية ، ولكنها فترة زمنية محدودة ، كاختبار أو امتحان للحياة الحقيقية التى أعدها الله للانسان العابد له ، الشاكر له المنفذ

لمنهجه بحب واختيار . . ولذلك نجد فى القرآن الكريم أكثر من آية تلفتنا إلى ذلك فى قوله تعالى :

﴿ وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلْآخِرَةَ لَهِيَ ٱلْحَيَوَانُ لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ ﴾

« الآية ٦٤ سورة العنكبوت »

اى أن الدار الآخرة هى الحياة الحقيقية . . وفى قوله تعالى :

﴿ وَٱللَّهُ يَدْعُوٓاْ إِلَىٰ دَارِ ٱلسَّلَٰمِ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾

« الآية ٢٥ من سورة يونس »

الحيــاة الحقيقية هى الآخــرة

لماذا أعد الله سبحانه وتعالى الحياة الحقيقية للانسان فى الآخرة ؟ . . أولا . . لأن الدنيا دنيا أغيار يعانى فيها الانسان ويكابد . . وليست فيها أحوال ثابتة مستقرة . . فأنت اليوم قوى ، وغدا ضعيف . . وأنت اليوم غنى ، وغدا فقير . وأنت اليوم سليم ، وغدا مريض . . وأنت اليوم حى ، وغدا ميت . . لا شىء يستقر على حال . . فكل شىء فى الدنيا يتغير ويتبدل . . لماذا ؟ .

لماذا جعل الله سبحانه وتعالى الدنيا عالم أغيار ؟ . . حتى يلفتنا إلى أن كل شىء منه . . ونحن لا نملك شيئا بذاتنا . . حتى نعرف أن الصحة من الله . . ولو كانت الصحة من أنفسنا ما مرضنا أبدا . .

ونعرف أن الغنى من الله . . ولو كان الغنى تضعه عقولنا ما أصابنا الفقر أبدا . . ولكى نعرف أن القوة من الله . . ولو كانت من أنفسنا لما أصابنا الضعف . . وذلك حتى نتذكر دائما نعم الله وقدرته فلا نعصاه . . ولكن نعرف أن الله سبحانه وتعالى هو الواهب وهو الفعال . . فلا تغرنا قدرتنا ونقول فعلنا . . ولا يغرنا ما نحن فيه من النعم ، فنقول كما قال قارون : « أوتيته على علم عندى »

إنما يريد الله أن يجعلنا ملتصقين به . . ولا يحدث هذا إلا إذا عرفنا ضعفنا وقوة الله . . وعجزنا وقدرة الله . . فنتبع المنهج ونتجه إلى الله . . وكلما غرتنا مظاهر الدنيا تغير الحال من قوة إلى مرض . . ومن قدرة إلى عجز . . علنا نفيق ونتذكر .

عالم أغيار .. لماذا ؟

وهكذا جعل الله سبحانه وتعالى هذا الكون عالم أغيار رحمة بنا . . فلو أنه ليس عالم أغيار لبعد الناس عن منهج الله . . لو رأوا فى أنفسهم قوة لا تضعف . . وقدرة لا تعجز . . ومالا لا يفنى ولا يذهب . . لابتعد الكثير عن ذكر الله ، ولغرتهم قوتهم ، فأفسدوا فى الأرض . . وانطلقوا مع أهوائهم وشهواتهم . . وأحس كل واحد منهم أنه بقوته وقدرته قد استغنى عن الله سبحانه وتعالى . . فمادامت القوة لا تتغير ولا تتبدل . . فكثير من الشفاه تنسى كلمة يارب . . وطغيان البشر يزداد فى الكون كله . . مصداقا لقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ إِنَّ الْإِنسَانَ لَيَطْغَىٰ ۝ أَن رَّآهُ اسْتَغْنَىٰ ﴾

« الآية رقم ٦ - ٧ من سورة العلق »

ولقد شاءت رحمة الحق سبحانه وتعالى . . أن يوجد فى الكون ما يذكرنا دائما بأننا لا نفعل شيئا إلا بقدرة الله سبحانه وتعالى . . فنحن نرى بأعيننا ، ولكن الله شاء أن يخلق من له عينان ولا يبصر . . لنعلم أن العين لا تبصر بذاتها . . ولكنها تبصر بقدرة الله . . ونمشى بأقدامنا . . ولكن الله شاء أن يوجد من له قدمان ولا يستطيع المشى . . ونسمع بآذاننا . . ولكن مشيئة الله خلقت من له أذنان ولا يسمع .

تلك أمثلة قليلة مما وضعه الله فى الكون وعوضه عما فقد بميزات أخرى ، ليكون ميزان العدل موجودا . . فوجد من هو أعمى ومن أعلم الناس . . ووجد من هو أصم ومن أنبغ الموسيقيين . . ووجد من لا تحمله قدماه وحكم أقوى دولة فى العالم من فوق كرسى متحرك .

إذن فعالم الأغيار ، رحمة بالانسان ، حتى لا يطغى ويبتعد عن منهج الله . . وتسخير الله لقوى هائلة فى الكون لخدمة الانسان رحمة من الله بنا ، حتى نتذكر كل يوم ، ونحن نرى الشمس والأرض والبحار ، ونتنفس الهواء ، أن هذه القوى كلها مسخرة لنا بقدرة الله .

مصـير العـلماء غير المؤمنين

نأتى بعد ذلك إلى النقطة الثانية . . وهى أن الله سبحانه وتعالى يريد أن يخص بنعمه عباده الطائعين الشاكرين . . ولكى يكون ذلك عدلا ، فلابد أن تكون هناك فترة اختبار يمر بها كل منا . . يكون فيها قادرا على المعصية ولكنه يطيع . . ويكون قادرا على الكفر ـ والعياذ بالله ـ ولكنه يؤمن . . ويكون قادرا على الافساد فى الأرض ، ولكنه يصلح . . كل هذا حبا لله وليس لأى هدف آخر . . فالانسان يصلى طاعة لله . . ويتصدق حبا فى الله ويعمل الصالحات إرضاء لله . . فمن فعل ذلك بإيمان حقيقى تقبل الله منه . . ومن فعل كل هذا ، وليس فى قلبه إيمان لم يتقبل منه .

وهذه النقطة لابد أن نلتفت إليها جيدا ، لأنها أخذت جدلا كثيرا بين العلماء .

فالناس تتساءل : أولئك الذين قدموا للبشرية اكتشافات أفادت الدنيا كلها . . ذلك الذى اكتشف البنسلين . . ذلك الذى كشف الله على يديه دواء لداء كان بلا شفاء . . أولئك الذين قدموا للانسانية خدمات هائلة انتفع بها البشر جميعا . . ولكنهم لم يكونوا مؤمنين . . هل يخلدون فى النار ؟

بعض العلماء قال : لا . . وقال إنهم سيدخلون الجنة . لما قدموا من خير البشر . . ولكنى أقول لهم : مادام لم يكن الله فى بالهم فلن يدخلوا الجنة . . لماذا ؟ . . لأنك إذا عملت عملا ، فإنك تأخذ

أجرك ممن عملت من أجله . . ذلك قانون أزلى . . فلا يمكن مثلا أن تبنى عمارة لانسان وتطلب أجرك من إنسان آخر . . أو تكون عاملا فى مصنع ثم تطالب صاحب مصنع آخر بأن يدفع لك أجرك .

والله أغنى الشركاء عن الشرك . . لماذا ؟ . . لأنه لا يحتاج إلى أحد من مخلوقاته . . فالله قد خلق الكون كله ، بما فيه من نعم وأرزاق ومخلوقات ، بكمال قدرته سبحانه وتعالى . . ولم يستعن فى ذلك بأحد . . ولا احتاج فى يوم من الأيام إلى أى مخلوق ، أو مجموعة من المخلوقات ، ليستكمل بها كمال قدراته تبارك وتعالى وتنزه .

ومن هنا فهو غنى عن خلقه جميعا . . غنى عن أى شريك . . فإذا قصدت بالعمل وجه الله وحده . . تقبله منك وجزاك عليه . . وإذا أشركت مع الله أحدا ترك كل ما عملت لمن أشركت به ، لأن الحق سبحانه وتعالى غنى عن هذا كله .

حــدود حـرية الانســان

ولذلك نجد القرآن الكريم يؤكد على هذا المعنى فى آيات كثيرة فيقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ ﴾

« من الآية ٩٤ من سورة الأنبياء »

.. ومعنى قول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ وهو مؤمن ﴾ . أن هناك من يعمل عملا صالحا وهو لا يؤمن .. وإنما يقصد بهذا العمل إرضاء بشر .. وقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِٱلْأَخْسَرِينَ أَعْمَـٰلًا ﴿١٠٣﴾ ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴿١٠٤﴾ أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَـٰتِ رَبِّهِمْ وَلِقَآئِهِۦ فَحَبِطَتْ أَعْمَـٰلُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ وَزْنًا ﴾

« الآيات ١٠٣ و ١٠٤ و ١٠٥ من سورة الكهف »

وحتى تكون الدنيا دار اختبار لعمل الانسان .. فكان لابد أن يخلق الانسان مختارا .. مختارا فى ماذا ؟ .. فى أن يتبع منهج الله أو يعصى .. وبعض الناس يحسب ـ وَهْما ـ أن اختيار الانسان فى الحياة اختيار مطلق .. وتسمع كثيرا من الناس يقول لك : أنا حر على إطلاقها .

نقول له لست حرا إلا فيما يؤهلك للحياة الآخرة .. فيما يؤهلك للجنة أو النار .. إذن فالاختيار هنا للانسان اختبار .. وليس اختيارا على إطلاقه .. وإلا لو كان اختيار الانسان على إطلاقه لوقى نفسه المرض .. فعندما يأتى إليه المرض يختار الصحة .. أو عندما تأتى إليه حوادث الدهر يختار ألا تقع عليه .. بل يكون له اختيار فى جسده مثلا ، فيختار متى ينبض قلبه .. ومتى يتوقف .. ومتى تتنفس الرئتان ومتى لا تتنفسان .. ومتى تعمل المعدة والأمعاء ومتى لا تعمل .. وما هى العضلات التى تتحرك عندما يقف ، وعندما

يمشى ، وعندما يجرى .. وألوف من الأشياء الأخرى .

ولكن الانسان يقوم ويجلس .. ويمشى ويقف ويجرى ويبطىء الخطى .. وهو لا يعرف أى العضلات تتحرك ، وأيها لا تتحرك .. كل أحداث الدنيا التى تقع على الانسان لا اختيار له فيها .. فنجد إنسانا حريصا على أن يركب الطائرة أو القطار .. مع أن هذه الطائرة أو القطار يحمل له الموت بعد ساعة فى حادث سيقع .. ولا أحد يختار الموت .. ولكنك تجد أولئك الذين كتب عليهم الموت فى حادث طائرة مثلا هم أحرص الناس على ركوب هذه الطائرة .. بل إن بعضهم قد يسعى ويتحدث مع هذا ومع ذاك ، ليحصل على مقعد فى الطائرة التى تحمل له الموت .

الاختيـار محـدود بالمنهـج

إذن فاختيار الانسان فى الحياة محدود بالمنهج .. وهذه رحمة أخرى من رحمات الله على خلقه . حتى نتذكر أننا لسنا أحرارا بإرادتنا .. ولكننا أحرار بمشيئة الله .. وفيما أراد الله سبحانه وتعالى لنا أن نملك حق الاختيار فيه .. فلا يجعلنا حق الاختيار هذا نبتعد عن الله .. بل نعرف مهمتنا فى الحياة ، وهى فى منهج الله وعبادته .. فلا يغرنا ذلك بأن نصدق أننا أخذنا هذا الاختيار بقوتنا نحن .. فإذا عرفنا ذلك اتجهنا إلى الله سبحانه وتعالى فى اختيارنا .. فإذا قال أفعل نفعل .. وإذا قال لا تفعل لا نفعل ..

إذن فمنهج الحياة الدنيا بما فيه من عالم الأغيار ، وبما فيه من حرية

الاختيار .. كل هذا كان يجب أن يذكرنا بالله دائما .. لنعرف أن هذا كله هو من قدرة الله سبحانه وتعالى ، وليس بقدراتنا .. فلا نعصى ولا نتجبر .. ولكن نخشع ونخضع لنفوز بالحياة الحقيقية التى أعدها لنا الله ، ونفوز برضاه ونعمه .. ولنعلم يقينا أننا مهما علونا فى الأرض .. ومهما بلغنا من أسباب القوة فنحن فى قدرة الله لا نخرج عنها أبدا ، ونحن فى قبضة الله لا نستطيع أن نفلت منها .. وأن وعد الله حق .. بأن كل ما فى الدنيا يذكرنا بالآخرة من أحوال تتغير ، ومن اختيار محدود فى المنهج .. ومن قوى أكبر منا تخدمنا وتعمل من أجلنا .

الحقيقـــة المنســية

ولكن رغم كل هذا هل اتعظ الانسان ؟ .. هل أحس يقينا أنه سيلقى الله فى الآخرة .. وهل أحس بالنعم التى أعدها الله له فى الجنة ؟ .. الجواب عن ذلك لا .. رغم أن كل لحظة فى حياتنا الدنيوية تذكرنا بالآخرة والذين يوقنون بالآخرة يحسبون لذلك اليوم ألف حساب .. ولو أن كل إنسان منا تذكر هذه الحقيقة لصلح أمر الدنيا .. ولحاسب كل منا نفسه قبل أن يحاسبه الله سبحانه وتعالى .. ولكن الناس نسوا يوم الحساب .. وانطلقوا مع أهوائهم يفعلون ما تشتهى أنفسهم .. يرتكبون المعاصى ويعتدون على الحرمات ، ويأخذون المال الحرام ، ناسين أو متناسين أن كل هذا محسوب عليهم ، ومكتوب عليهم .. فهناك الحفظة الكرام الذين

يكتبون كل شىء .

هذه مقدمة كان لابد منها لإيضاح الهدف الذى نسعى إليه من هذا الكتاب .. وهو أن يتذكر الناس أن هناك حسابا قادما .. بعد أن عم الفساد معظم أقطار الأرض .. وانطلق الناس بعدم إيمانهم بالآخرة يفعلون كل شىء ، وأى شىء .. حاسبين أن الله غافل عما يعملون .. ولكن الله سبحانه وتعالى يقول :

﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ غَٰفِلًا عَمَّا يَعْمَلُ ٱلظَّٰلِمُونَ ۚ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ ٱلْأَبْصَٰرُ ﴾

« الآية ٣٤ من سورة إبراهيم »

اليقيـن بالآخـرة

والايمان بيوم القيامة هو الأساس فى العمل الصالح .. ففى أول سورة فى القرآن الكريم سورة البقرة .. فى أولى آياتها يوضح الله سبحانه وتعالى مطلوبات الايمان فيقول :

﴿ الٓمٓ ﴿١﴾ ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ ۛ فِيهِ ۛ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٢﴾ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣﴾ وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَبِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴿٤﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٥﴾ ﴾

« الآيات ١ و٢ و٣ و٤ و٥ من سورة البقرة »

وهكذا نرى أن من مطلوبات الايمان أن يكون هناك يقين بالآخرة . . لماذا ؟ . . لأنك إذا لم تؤمن بالآخرة فافعل ماشئت مادام ليس هناك حساب . . ومادمت لا تلاقى الله . . فمم تخشى ؟ وماذا تخاف .

إن أساس اليقين فى الدنيا هو يقين بالآخرة . . ذلك الذى يقف حائطا صلبا بينك وبين كل المعاصى . . وبينك وبين كل المظالم . . فالناس ترتكب المعصية . . لأن الجزاء مستور عنا . . لو رأينا العذاب لما اقترب واحد منا من المعاصى . . لو رأى السارق ما سيفعل به يوم القيامة لما اقترب من المال الحرام . . ولو رأى الزانى جهنم ، ولو لحظة واحدة ، لما استطاعت نساء الدنيا كلها أن يغرينه . . ولورأى أى إنسان جزاء ما ينتظره على المعصية لما ارتكبها . . ولكن لأن الجزاء مخفى عنا . . ولأننا لا ندقق ولا نتفهم بعمق مارواه الله سبحانه وتعالى لنا عن الآخرة ، فإننا ننطلق إلى المعاصى . . تغرينا الشهوة العاجلة التى نحققها ، وننسى ماهو خالد قادم .

وأساس السلوك البشرى فى الدنيا هو اليقين باليوم الآخر . . ذلك اليقين الذى يرفع يد القوى عن أن يغتصب حق ضعيف . . لأنه يعلم أنه ملاقى الله يوم القيامة . . ويوقف كل قادر عن أن يأخذ أموال الناس بالباطل ويبغى فى الأرض . . فإذا تذكرت الآخرة وأنت تهم بأى معصية ، فإنك سترفع يدك عنهاعلى الفور خوفا من عقاب الله .

منطق عدم الايمان

ولو أننا تتبعنا منطق إنكار الايمان لوجدناه كله قائما على عدم الايمان بالآخرة .. وفى هذا آيات كثيرة فى كل سورة من القرآن .. ماذا قال الكفار؟ .. ماهو منطق عدم الايمان؟ .. قولهم :

﴿ وَقَالُوا۟ مَا هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُ ۚ وَمَا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴿٢٤﴾ ﴾

« سورة الجاثية ـ الآية ٢٤ »

.. كان هذا هو منطق الكفار .. وعدم إيمانهم هو إنكار للبعث وإنكار ليوم القيامة .. فلما جادلهم الرسل قالوا :

﴿ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ مَّا كَانَ حُجَّتَهُمْ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ ٱئْتُوا۟ بِـَٔابَآئِنَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٢٥﴾ ﴾

« سورة الجاثية ـ الآية ٢٥ »

وفى سورة « المؤمنون »

﴿ أَيَعِدُكُمْ أَنَّكُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنتُمْ تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَنَّكُم مُّخْرَجُونَ ﴿٣٥﴾ * هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ لِمَا تُوعَدُونَ ﴿٣٦﴾ إِنْ هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ﴿٣٧﴾ ﴾

واقرأ فى سورة المؤمنون «فى الآيتين ٨٢ و٨٣» أيضا :

﴿ قَالُوٓاْ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴿٨٢﴾ لَقَدْ وُعِدْنَا نَحْنُ وَءَابَآؤُنَا هَٰذَا مِن قَبْلُ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٨٣﴾ ﴾

وفى سورة الصافات ـ فى الآيتين ١٦ و ١٧ :

﴿ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴿١٦﴾ أَوَءَابَآؤُنَا ٱلْأَوَّلُونَ ﴿١٧﴾ ﴾

وفى سورة النحل ـ الآية ٣٨ :

﴿ وَأَقْسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ لَا يَبْعَثُ ٱللَّهُ مَن يَمُوتُ بَلَىٰ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٨﴾ ﴾

قضـــية البعث

هذه الآيات هى قليل من كثير موجود فى القرآن الكريم عن البعث . . يروى لنا أن قضية البعث هى أساس فى الايمان ـ وأنه ما من كافر إلا وينكر البعث ويتمنى ألا يكون . . ذلك أن إنكار البعث كما بينا يطلق للنفس البشرية شهواتها بلا حساب . . وإذا

كانت قضية البعث هى القضية اليقينية الأولى . . فإننا نجد كل المذاهب التى انحرفت عن الاسلام تحاول إنكار العذاب فى الآخرة بطرق شتى . . فمنها من يحلل بعض الذنوب والمعاصى . . ليشعر العاصى بشىء من الاطمئنان يحلل به معصيته . . وأما إنكار التعذيب بالنار . . والقول بأن رحمة الله تحيط بجهنم . . كل هذا خروج عن المنهج . . وهو فى الحقيقة محاولة للهروب من حقيقة الحساب والعذاب فى الآخرة .

والكافر حقيقة لا يؤمن من بالآخرة . . ولكن الموت الذى يراه أمامه كل يوم يملأ حياته بالرعب والفزع ، وينغص عليه عيشته . . وخصوصا أنه يرى الموت فيمن لا يعرف . . وفيمن يعرف ، وفى أقرب الناس إليه . . وإيمان الفطرة يلح عليه دائما . . وملكات الايمان التى خلقها الله فى نفسه تتصادم مع الكفر الذى ملأ حياته زيفا . . ولذلك فهويحاول أن يخدع نفسه دائما بأنه لا شىء بعد الموت . . فهل يكون الانسان سعيدا حتى إذا وصل إلى ذلك ؟ .

وما معنى الحياة إن كانت تذهب وتنتهى بلا هدف ولا غرض . . وإذا كنا نولد ونموت فى عالم كله امتحانات إيمانية للنفس . . فلو أنه ليس هناك بعث . . لكان الكافر بالله هو الفائز فى هذه الحياة . . لأنه أعطى نفسه كل شهواتها وارتكب كل المعاصى . . ثم بعد ذلك مضى ولا شىء . .

ولكن هل يمكن أن يحدث هذا ؟ . . هل الله سبحانه وتعالى يخلق كل هذا الكون ليتمتع به من يكفر بالله ؟ . . ولا ينال ذلك الطائع الذى يحمل نفسه على منهج الله ، ويحرم عليها الشهوات

والمعاصى . . ثم بعد ذلك لا شىء . إن هذا المنطق يهدم فكرة الخلق نفسه . . ويهدم أساس وجود الحياة الدنيا . . وأمنية كل كافر مسرف على نفسه هى ألا يكون هناك يوم حساب . . وألا تكون هناك آخرة . . لكنه لو جلس قليلا وتأمل بالمنطق وحده . . لوجد أن هذا الكلام لا يتفق مع العقل . وإنه مادام هناك خالق ومادام هناك كون . . فلابد أن تكون هناك غاية . . ولا توجد غاية لهذا الكون إلا إذا وجد يوم القيامة . . ووجد الحساب والعقاب والجنة والنار . . تلك هى الغاية من الكون كله .

المنهـــج يقيّـــد هـــوى النفـــس

ولكى تكمل الصورة . . فإننا لابد أن نعرف . . أن الله سبحانه وتعالى أراد لهذا الكون منهج العدل . . ولذلك فقد قيد فى منهج السماء هوى النفس الذى هو أساس الفساد . . فكل ما يستنبطه الانسان ، وليس فيه هوى النفس . . تركه الله سبحانه وتعالى فى الكون بلا منهج . . فالعلوم الصم التى مكانها المعمل لا يتدخل فيها منهج الله إلا أن يحيطها بقيم أخلاقية تحميها من الهوى . . فالكيمياء مثلا علم أصم يتسابق عليه العالم أجمع . . فتسرق أسراره الدول من بعضها البعض . . وأنه ليس فيه هوى نفس . . ولذلك فهو موحد فى العالم كله . . لا توجد كيمياء إنجليزية . . وأخرى فرنسية . .

وأخرى سوفيتية . . بل كلها علم كيمياء . . يحيطه المنهج بقيم أخلاقية ليكون علما خالصا قائما على حقيقة . . ليس فيه غش ولا تدليس . . فإذا انتقلنا إلى المناهج السياسية التى يدخل فيها هوى النفس . . وجدنا الصراع . . فأمريكا تحرم وتجرم المبادىء السياسية للاتحاد السوفيتى . . والسوفييت يوقعون عقوبات تصل إلى الاعدام على كل من يعتنق المبدأ الرأسمالى الأمريكى . . وهنا ينزل المنهج ليقضى بين الناس فى الأهواء التى هى أساس الصراعات فى الدنيا . . فيقول لا رأسمالية ولا شيوعية ، وإنما منهج السماء يحكم بين الجميع . . لماذا ؟

لأن الله سبحانه وتعالى لا يميز أحدا عن أحد . . ولا يفضل خلقا على خلق بحيث يبيح لبعض الناس ما يحرمه على البعض الآخر . . فعدل الله مطلق . . وإذا تأملنا فى تشريعات الله نجد فيها حماية للضعيف من القوى ، وحماية للقوى أيضا . . قد يكون هذا كلاما متناقضا . . ولكنه فى الحقيقة كلام متكامل . . وهذا التكامل لا يكون إلا فى منهج الله .

إذا أخذنا مثلا حد السرقة . . هذا الحد يحمى الضعيف من أن يعتدى عليه القوى فيسرق من ماله . . وهو عاجز عن أن يدافع عن نفسه ، وهذا ما نراه فى كل مجتمع . . وقد يكون للقوى منطق آخر ، وهو أنه يستطيع أن يغتصب مال الضعيف دون أن يمنعه أحد أو يصيبه أذى . . فلماذا حرم الله عليه ذلك ؟ . . نقول : إذا كان الله سبحانه وتعالى قد حرم السرقة . . فإنه منع القوى من أن يأخذ مال الضعيف . . ولكنه فى نفس الوقت منع المجتمع كله من أن يأخذ مال

القوى ، والانسان مهما كان قويا فإنه أمام المجتمع ضعيف . . وإذا أردت أن تعرف ذلك فانظر إلى ثورات المجتمعات ، وهى ضد الأقوياء والطغاة . . فلا تحدث ثورة ضد ضعيف لأنه لا حول له ولا قوة .

ماذا يحدث فى حالة الثورات ؟ . . يصبح ذلك القوى الذى كان يفاخر بقوته ضعيفا أمام المجتمع ، لا حول له ولا قوة . . وينطلق الناس ينهبون ثرواته ويعتدون على أمواله وهو لا حول له ولا قوة . . يبحث عن مكان يختبىء فيه . ويتمنى لو أنهم أخذوا أمواله كلها وتركوه حيا .

إذن ففى هذه الأحداث تتلاشى قوة أقوى الأقوياء أمام المجتمع . . والله سبحانه وتعالى يرينا قوة المجتمع المدمرة أمام أقوى الجبابرة . . لنعرف من أمثلة قد تحدث على فترات . . يرينا قوة المجتمع الذى يحمينا منه بمنهجه . . ولو استحضر أحدنا هذه الصورة وما يمكن أن يحدث له لسجد شكرا لله سبحانه وتعالى ، لأنه حماه من المجتمع بمنهجه الذى حرم على الجميع أن يمدوا أيديهم إلى أمواله . . لأن منهج الله إن كان قد حرم على القوى مالا محدودا يملكه الضعيف . . فإنه حرم على المجتمع أن يفتك بالقوى ، وأن يأخذ أمواله ، وربما حياته . . إذن فالمنهج ليس قيدا على أى فرد . . ولكنه حماية لكل الناس . . ولو نظر أى إنسان مهما كانت قوته إلى أبعد من قدميه لادرك أن القيد الذى وضعه الله هو قيد له ولمصلحته ، وليس قيدا عليه .



كيف يعالج الرسول الأمور ؟

فإذا انتقلنا بعد ذلك إلى جريمة الزنا . . نجد أن بعض الناس يريد أن يحلها على أساس أنها حرية شخصية . . ولقد جاء أعرابى إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم . . وقال له يارسول الله : أنا أريد أن أؤمن ولكنى أحب النساء ، فهل تبيح لى الزنا . . ولم يغضب رسول الله صلى الله عليه وسلم . ولم يأمر بجلده أو رجمه . . وإنما قال له ، وهو المعلم والحكيم : أترضى هذا لأمك ؟ . . قال الرجل لا . . قال أترضاه لأختك ؟ . . قال الرجل لا . . قال أترضاه لزوجتك ؟ . . قال لا . . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم . . وكلنا كذلك يا أخا العرب . . وهكذا عرفنا من هذا الحديث حكمة بالغة من حكم تحريم الزنا . . وهى أن الله سبحانه وتعالى حينما حرم الزنا علينا كان يحمى بذلك أعراضنا . . يحمى أمك وأختك وزوجتك من أن يزنى بها أحد . . وهكذا كان القيد لصالحك وليس قيدا عليك . . لأنه حرم على المجتمع كله أن يقترب من أمك أو أختك أو وزوجتك . . ولك أن تتصور الحال لو أن الله أباح الاعتداء على أعراضك للناس . . كل الناس . . ماذا كان يمكن أن يحدث ؟

وهكذا إذا استعرضنا منهج الله فى افعل ولا تفعل تجد أنه حماية للناس كل الناس . . ولو فكر أى واحد منا تفكيرا سليما لطالب بهذا المنهج وسعى إليه . . ودعا الله أن ينزله ، وأن يشرعه . . لأن فيه الضمان والأمان لكل الناس . . ولكن الذى ينكر منهج الله ويحارب منهج الله . . إنما يريد أن يبيح لنفسه ما يحرمه على غيره . . فهو يريد

أن يعتدى على أموال الناس . . ولا أحد يعتدى على ماله . . وهو يريد أن يعتدى على أعراض الناس . . ولا أحد يعتدى على عرضه . . ولذلك فهو لا يريد الحق . . لأن الحق والعدل هما مساواة بين الجميع . . وليس تمييزا لأحد على أحد بالباطل . . وفى ذلك يقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ وَلَوِ ٱتَّبَعَ ٱلْحَقُّ أَهْوَآءَهُمْ لَفَسَدَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ ﴾

« من الآية ٧١ من سورة المؤمنون »

العمـــل عبـــادة

على أن البعض يحاول أن يلصق بهذا المنهج أنه ترك للدنيا . . فمادامت الحياةهى الآخرة . . ومادامت هذه دنيا أغيار لها نهاية ، طالت أم قصرت ، فلماذا العمل ، ولماذا إجهاد النفس فى شىء سيفنى ؟ . . وفى شىء سيزول وينتهى ؟

نقول لهؤلاء جميعا الذين يرددون هذا الكلام ، وما أكثر من يرددونه ؛ إن العمل عبادة . . ولو أن الله سبحانه وتعالى كان يريد من المؤمنين به ألا يعملوا لما فرض الزكاة . . ولما أوجد الصدقة . . ولما وضع فى منهجه تشريعات التوريث فيما يتركه الانسان بعد وفاته . . ولكن وجوب الزكاة وفضلها . . معناه أنه لابد أن يتحرك كل مؤمن فى الحياة . . حركة تزيد عن حاجته ، وإلا فمن أين سيدفع الزكاة . . وكلما زادت حركته زاد مقدار الزكاة الذى سيدفعه . .

وكلما ازدادت حركة حياته أكثر استطاع أن يتصدق بجزء من ماله . . فزاد ثوابه عند الله ، وزادت حسناته . . وكلما ترك لأولاده شيئا يعينهم على حياتهم المستقبلة كان ذلك أفضل بشرط أن يكون مالا حلالا زكيت عنه . . ولو أن منهج الله حقيقة لا يحث على العمل والتحرك فى الحياة بأقصى طاقة ممكنة ، بحيث تزيد حركة حياتك عما تحتاج إليه أنت وأسرتك . أنت وزوجك وأولادك ما فرضت الزكاة ، وماوجبت الصدقة .

إذن فكل من يقول إن منهج الله ترك للعمل لأن الدنيا فانية . . نقول إنه ترك للعمل غير الصالح وحث على العمل الصالح . . لأن مهمة الانسان هى عمارة الأرض . ورسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : (ما أكل أحدكم طعاما قط خيرا من أن يأكل من عمل يده) . . ويقول صلى الله عليه وسلم وهو ممسك بيد أحد الصحابة وقد أحس بأنها خشنة الملمس من العمل . . (هذه يد لا تمسها النار) . . ولو أن منهج الله فعلا كان يدعو إلى عدم العمل وترك الدنيا للكافرين . . لكان أول من طبقه هم المسلمون الأوائل أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم . . ولكن هؤلاء رضى الله عنهم جميعا فهموا المنهج الفهم الصحيح . . ولذلك عملوا وجاهدوا وأنشأوا حضارة من عرق الحضارات . . التى أخذت الدنيا كلها عنها أساس الحضارة الحديثة .

ولذلك فإن الذين يمتنعون عن العمل هم مخالفون لمنهج الله . . والذين يريدون أن يعيشوا على فتات المجتمع فى حقيقتهم يسيئون

للمنهج ولا يطبقونه . . فمنهج الله يريد أمة قوية قادرة تسود الأرض . . ولا يريد أمة من الضعاف الجياع الذين يسألون الصدقة ويعيشون مستضعفين فى الأرض . . تلك هى الحقيقة التى لابد أن يعيها الجميع . . وأجر الانسان العامل هو أجر المجاهد . . مصداقا لحديث رسول الله صلى الله عليه وسلم . . فقد كان جالساً مع أصحابه ذات يوم ، فنظروا إلى شاب ذى جلد وقوة وقد بكر يسعى ، فقالوا : ويح هذا لو كان شبابه وجلده فى سبيل الله . فقال صلى الله عليه وسلم : لا تقولوا هذا . فإن كان يسعى على نفسه ، ليكفها عن المسألة ويغنيها عن الناس ، فهو فى سبيل الله ، وإن كان يسعى على أبوين ضعيفين ، أو ذرية ضعاف ، ليغنيهم ويكفيهم فهو فى سبيل الله .

إلى هنا نأتى إلى ختام الفصل الأول . . وقد بيننا فيه كيف أن الله سبحانه وتعالى برحمته قد وضع منهجا فى الحياة الدنيا . . يذكرنا دائما بقوته وعجزنا . . ويذكرنا بفضله علينا فيما خلق لنا من النعم . . حتى لا تغرنا قوتنا ، ونحسب أننا فى غنى عن الله سبحانه وتعالى . . وكيف أن الانسان الذى خلقه الله مختارا . . لم يعط له الاختيار المطلق . . وإنما أعطاه الاختيار فى المنهج الذى بينه ووضحه له . . حتى يكون الحساب عدلا فى الآخرة . . وكيف أن الدنيا هى دار اختبار . . وأن الحياة الحقيقية التى أعدها الله للانسان هى الحياة فى الجنة . . حيث ينعم بلا حدود . . وحيث يعيش حياة خالدة لا تنتهى أبدا . . ويعيش فى نعمة الله فلا تزول عنه بأن تذهب وتنتهى . . ولا يزول عنها بأن يموت . .

وبينا أن اليقين بالآخرة هو أساس الايمان . . وأن كل كافر بمنهج الله يحاول أن ينكر يوم الحساب . . . ويحاول أن ينكر أن هناك جزاء فى الآخرة . . لأنه يريد أن يعيش تبعا لأهوائه وشهواته . . وهذا يتنافى مع الحق الذى قامت عليه السموات والأرض . . والذى هو صفة من صفات الله سبحانه وتعالى .

وبينا كيف أن منهج الله قد وضع لحماية الناس كل الناس . . فهو يحمى الضعيف من القوى . . ويحمى القوى من المجتمع . . ولو أن الله سبحانه وتعالى لم ينزل منهجا للحياة فى الأرض لطلبنا نحن هذا المنهج . . لأنه هو الوسيلة الوحيدة ليعيش الانسان آمنا مطمئنا فى الأرض . . وهو الطريق إلى الحياة الطيبة .

معنى الحياة

على أننا قبل أن نبدأ فى مشاهد الآخرة . . وكيف سيشهد على الانسان جلده وسمعه وبصره مصداقا لقوله تعالى :

﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا مَا جَآءُوهَا شَهِدَ عَلَيۡهِمۡ سَمۡعُهُمۡ وَأَبۡصَٰرُهُمۡ وَجُلُودُهُم بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴿٢٠﴾ وَقَالُواْ لِجُلُودِهِمۡ لِمَ شَهِدتُّمۡ عَلَيۡنَاۖ قَالُوٓاْ أَنطَقَنَا ٱللَّهُ ٱلَّذِيٓ أَنطَقَ كُلَّ شَيۡءٖ وَهُوَ خَلَقَكُمۡ أَوَّلَ مَرَّةٖ وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ ﴿٢١﴾ ﴾

« سورة فصلت ـ الآيتان ٢٠ و ٢١ »

وقبل أن نتحدث عن كيف أن الحجارة ستحرق من عبدها . . لابد أن نتحدث عن معنى الحياة . . وهل الحياة فى الانسان فقط . .

أم فى الانسان والحيوان . . أم أنها فى كل ما خلقه الله فى الدنيا حتى لو كنا لا نرى فيه أية حياة بمفهومنا نحن . . ولكن كل شىء فى هذا الكون فيه حياة . . وهذا هو موضوع الفصل القادم إن شاء الله .

أحـاديث قـدسـية

يقول رب العزة فى حديثه القدسي :

« مِنْ عبادى مَنْ صلاحُه فى الغنى . فلو أفقرتُه لفسدَ حالُه .

ومِنْ عبادى من صلاحهُ فى المرضِ ، فلو عافيتُه لفسد حالُه .

ومن عبادى من صلاحُه فى العافية فلو أمرضتُه لفسدَ حالُه » .

الفصل الثاني

معنى الحياة



معنى الحيـــاة

الله سبحانه وتعالى هو خالق هذا الكون .. هو خالق الحياة فيه .. ولكى نفهم معنى الآيتين الكريمتين :

﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا مَا جَآءُوهَا شَهِدَ عَلَيۡهِمۡ سَمۡعُهُمۡ وَأَبۡصَٰرُهُمۡ وَجُلُودُهُم بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴿٢٠﴾ وَقَالُواْ لِجُلُودِهِمۡ لِمَ شَهِدتُّمۡ عَلَيۡنَاۖ قَالُوٓاْ أَنطَقَنَا ٱللَّهُ ٱلَّذِيٓ أَنطَقَ كُلَّ شَيۡءٖ ﴾

(الآيتان ٢٠ ، ٢١ من سورة فصلت)

.. لابد أن نعرف معنى الحياة والمقصود بها .. وهل هى الحياة بمفهومنا أم أن الحياة فى الكون بمفهوم آخر يختلف تماما عن مفهومنا .. نحن نفهم الحياة على أساس أنها حس وحركة .. الانسان فيه حياة لأنه يحس ، ويعقل ويتحرك .. والحيوان فيه حياة أيضا ، لأنه يحس ويتحرك .. أما النبات فهناك من يقول : إن فيه حياة لأنه ينمو ويكبر ويثمر ويذبل .. فيه نوع من التغيير والحركة .. حركة النمو .. إذن ففيه نوع من الحياة .. أما الجماد فى مفهومنا فليس فيه حياة ، لأنه لا يحس ولا يتحرك ولا ينمو .

وأجناس الكون أربعة .. أدناها الجماد ، وتنتهى حياته المنظورة لنا بخاصية النمو ، وهى أولى خواص النبات .. لذلك نجد عددا من الشعب المرجانية وهى جماد تنمو فى البحر .. أما النبات فيبدأ بخاصية النمو التى انتهى عندها الجماد ، وينتهى بخاصية الحس التى يتميز بها الحيوان .. فنجد بعض النباتات إذا لمستها أحاطت بك ،

أو أغلقت أوراقها ، مثل ما يطلق عليه الناس ـ الست المستحية ـ . . وهكذا تنتهى الحياة فى النبات عند الحس . . وتبدأ الحياة فى الحيوان بالحس والحركة . . وتنتهى بشىء من التمييز ، وهو من صفات العقل . . فنجد أن أرقى الحيوانات ، وهى القردة ، تستطيع - إلى حد ما ـ أن تقوم ببعض الحركات التى فيها نوع من التمييز . . وهو ما تبدأ به حياة الانسان . . فلا يوجد إنسان ليس له عقل مميز . . وتنطلق مظاهر الحياة فى الانسان مع العقل إلى آفاق بلا حدود . . وتظل ترتقى وترتقى مع ارتقاءات العقل إلى ما شاء الله .

هذه هى مظاهر الحياة كما نفهمها نحن . . فكل جنس من أجناس الكون ـ جمادا كان أو نباتا أو حيوانا أو إنسانا ـ يبدأ عند النهاية التى يصل إليها الجنس الذى قبله . . ولكن هل مفهومنا فى الحياة صحيح ؟ وهل الحياة هى الحس والحركة فقط ؟ وهل خلق الله الأشياء فى الدنيا جامدة . ثم يجعلها يوم القيامة تنطق وتتكلم ؟ فالحياة فى الدنيا ، وهى التى يشارك فيها المؤمن والكافر ، قصارى ما تعطينا الحس والحركة . فهل هذه حقيقة هى مظاهر الحياة ؟ أم أن هناك مظاهر أخرى وأسرارا أخرى فى الكون لا ندرى عنها شيئا . . فى معنى الحياة يحكمنا القرآن الكريم . . ماذا قال الله سبحانه وتعالى . . إقرأ قول الحق :

﴿ لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ ﴾

(الآية ٤٢ ـ سورة الانفال)

إذا تدبرنا فى هذه الآية نكون قد عرفنا من القرآن أن الهلاك مقابل للحياة . . أو ضد الحياة . . هناك حى وهناك من هلك . . أى لا حياة له . . يأتى الحق سبحانه وتعالى فى آية أخرى ليقول :

﴿ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ ﴾

(الآية ٨٨ ـ سورة القصص)

. . مادام الله سبحانه وتعالى قال كل شىء سيصبح هالكا . . إذن فكل شىء فيه حياة . . أو ما يقال عنه شىء فيه حياة . . لأن الحق سبحانه وتعالى يقول عندما تأتى القيامة سيهلك كل شىء إلا وجه الله . . إذن فقبل ساعة القيامة يكون كل شىء فيه حياة . . وطبعا قبل ساعة القيامة يكون هناك جماد ونبات وحيوان وإنسان . . فإذا أضفنا إلى ذلك قول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ﴾

(من الآية ٤٤ من سورة الاسراء)

. . يكون كل ما فى الكون مسبحا لله . . يقول بعض العلماء أن كل شىء يسبح تسبيح دلالة على الخالق . . نقول لهم لو أنه كان تسبيح دلالة نكون قد فهمناه . . ولكن الله يقول :

﴿ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ﴾

. . إذن فنحن لا نفهم هذا التسبيح ، إذا وصلنا إلى هذه النتيجة نكون قد عرفنا أن كل شىء فى الكون له حياة . . وهذه الحياة تناسب

مهمته . . إذن فالأشياء التى نراها أمامنا ساكتة لا تنطق ولا نتكلم . . هى فى الحقيقة تنطق وتتكلم ولكننا لا نسمعها . . وفى ذلك يقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ أَنطَقَنَا ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنطَقَ كُلَّ شَىْءٍ ﴾

(من الآية ٢٠ من سورة فصلت)

مفهــوم الحيـــاة

هنا لابد لنا من وقفة طويلة عند مفهوم الحياة . . فنحن نفهم الحياة على أنها حس وحركة مرئية لنا . . ولكن الحقيقة أن هناك حسا وحركة فى الكون مرئية لنا . . وهناك حس وحركة غير مرئية لنا . . ولنأخذ الجماد أولا باعتباره أكثر الأشياءالتى يعتقد العلماء أنه ليس فيها حياة فى منطق الانسان . . وسأضرب هنا أمثلة بسيطة جدا حتى نكون جميعا عارفين بما يحدث .

نحن حين نريد أن نمغنط قضيبا من الحديد . . ماذا نفعل . . نأتى بمغناطيس ونمر على قطعة الحديد فى اتجاه واحد عدة مرات ونظل نقوم بهذه العملية لفترة حتى تتم مغنطة قطعة الحديد . . ماذا حدث ؟ أولا دخلت المغناطيسية إلى قطعة الحديد غير الممغنطة . . كيف حدث ذلك ؟ نحن لم نر شيئا ، ولكننا شهدنا أثر المغناطيسية على قطعة الحديد التى أتينا بها فأصبحت تجذب الأشياء . . هذه واحدة . . قوة معنوية ظهرت ـ لم نر شيئا يتغير أمام أعيننا . . ولكن مع ذلك فقد تغير شىء ما فى قطعة الحديد التى أجرينا عليها التجربة . . بحيث

أصبحت ممغنطة بعد أن كانت غير ممغنطة . . فإذا ارتقينا بالتجربة ، وجئنا ببرادة الحديد فى أنبوبة اختبار . . ومررنا عليها عدة مرات بالمغناطيس فى اتجاه واحد . . نجد البرادة تتحرك وتتبدل حتى تصير فى اتجاه واحد . . ذرات القضيب الحديدى قامت بنفس الحركة . . ولكن فى داخل الجسم الصلب . . ونحن ننظر إلى هذا الجسم لم نلاحظ فيه أى حركة . . ولكننا حين جعلناه جزئيات صغيرة بحيث أصبح برادة حديد . . رأينا الحركة والتبدل الذى حدث . . ولكن السؤال ظل مستمرا . . وهو كيف دخلت المغناطيسية ، واخترقت هذا الجسد الصلب القوى وهو الحديد . . وأحدثت فيه حركة حتى تحولت ذراته وتجمعت فى اتجاه واحد . . هذا لم يصل إليه العالم حتى الآن .

ولكن إذا كان الحق سبحانه وتعالى قد كشف لنا من علمه ما جعلنا نرى برادة الحديد وهى تتحرك فى أنبوبة اختبار . . وتتشكل وتتبدل . . إنما ليرينا أن الشىء الساكن والجامد وهو الجماد . . يمكن أن تكون فيه حركة مستمرة . . ولكننا لا نراها لأنها فوق طاقة أبصارنا . . إذن فالجماد فيه حركة ولكننا لا نراها .

وقبل أن نمضى فى هذا الحديث . . لابد أن نبين أن وجود الشىء يختلف تماما عن إدراك وجوده . . فقد يوجد الشىء ولا ندركه مثل ملايين المخلوقات فى الكون التى تتحرك وتتكلم وتعيش ، ولا ندركها بأبصارنا ، ولا نسمع أصواتها . . فالجن مثلا تعيش وتتناسل وتتحدث مع بعضها البعض ولها حياة ولكننا لا نراها . . والملائكة مثلا موجودة تؤدى مهمتها فى الكون ، ولكننا لا نراها .

هذه قضية هامة لابد أن نتحدث عنها لنفهم معنى الحياة فى الجماد .. وهى قضية غيبية .. فوجود الملائكة والجن أخبرنا به الله .. وأخبرنا بأننا لا نراهم فى قوله تعالى عن الشيطان :

﴿ إِنَّهُۥ يَرَىٰكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُۥ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ ﴾

(من الآية ٢٧ من سورة الأعراف)

إذن فهناك من يرانا ولا نراه .. وهذه كما قلت قضية غيبية .. وقد يأتى أى إنسان ويقول لك أنا لا أؤمن بالغيب .. ولا أصدق أن هناك مخلوقات لا نراها .

نقول له : إن رحمة الله سبحانه وتعالى بعباده جعلته يضع فى الكون قضايا حسية .. تقربّ إلى أذهاننا صور الغيب رحمة بعقولنا .. فلنأخذ من العالم المادى ما يقرب لأذهاننا الصورة .. كيف ؟ إن الجراثيم مثلا كانت موجودة فى الكون تؤدى مهمتها .. وكنا نرى آثار هذه المهمة فى أعراض كثيرة .. ولكننا لم نكن نرى الجراثيم التى تسبب هذه الأعراض .. ثم تقدم العلم الذى كشفه الله للبشر .. واخترعت الميكروسكوبات التى تكبر مئات المرات .. ووصلت إلى أنها تكبر الصورة ملايين المرات .. فماذا حدث ؟

رأينا هذه الميكروبات .. ورأيناها بصورتها البشعة .. مخلوقا عجيبا غاية فى الدقة .. وفيه حياة ويتوالد ويتكاثر ويأخذ أشكالا مختلفة .. بل إن الميكروب فيه حياة متكيفة .. بمعنى أنه بعد أن تستخدم ضده دواء معينا .. يتكون من جسده ما يقاوم هذا

الدواء ، ولا يجعل له فاعلية . . ولذلك فلابد من فترة إلى فترة . . أن يغير الأطباء الدواء ، لأنه لم يعد مؤثرا على الميكروب فقد تحصن ضده . . ويلفتنا هذا إلى دقة خلق الله سبحانه وتعالى . . فالله خلق فى هذه المساحة الصغيرة التى لا ترى بالعين المجردة . . وربما لا ترى . . بمجهر صغير . . خلق فى هذه المساحة الدقيقة غاية فى الدقة مخلوقا له حياة كاملة . . فيها غذاء ، وفيها تناسل ، ولها دورة حياة متكاملة .

والسؤال هنا : هل وجد هذا الميكروب أولا ، ثم أدركنا وجوده . . أم أنه لم يوجد إلا ومعه إدراكنا لهذا الوجود ؟ والجواب طبعا أنه وجد أولا وكان يقوم بمهمته فى الحياة قبل أن ندرك وجوده . . ولولا أننا أدركنا آثار هذه المهمة . . وبدأ العلماء يبحثون عن سبب هذه الآثار . . ما أدركنا هذا الوجود . . ولكن عدم إدراكنا لوجود هذا الميكروب لم يكن يعنى أنه غير موجود .

الوجـود .. وإدراك الوجـود

إذن فالوجود شىء وإدراك الوجود شىء آخر يختلف تماما . . وهذا ينطبق على أشياء كثيرة فى الكون لا تعد ولا تحصى . . فكأنه قضية عامة وليس قضية خاصة . . إذا وضعت نقطة الماء أو نقطة الدم تحت الميكرسكوب فستجد فيها أشياء عجيبة . . كائنات حية تتحرك وتعيش وتتناسل . . وتؤدى مهمة فى الحياة دون أن نعرف عنها شيئا أو ندرك وجودها . . فإذا اتجهت بالتليسكوب إلى السماء رأيت نجوما لم تكن تراها بعينك المجردة . . هل هذه النجوم التى رأيتها

بالتليسكوب كانت موجودة . . أم أنها خلقت ساعة أدركت وجودها ؟

الجواب الذى يوافق عليه كل علماء الأرض أنها كانت موجودة تؤدى مهمتها فى الحياة دون أن تدرك أنت وجودها . ولما تقدم العلم الذى كشفه الله للانسان فى الأرض . . واخترعت آلة التليسكوب التى تقرب الأشياء . . أصبح من الممكن رؤية هذه النجوم لأن الآلة الجديدة أعانت العين وجعلت رؤية هذه النجو فى مقدورها .

إذن فهذه النجوم أدت دورها ربما لملايين السنين دون أن تحس بها ، أو تعرف شيئا عن وجودها أو حياتها . . وإذا كان وجود الشىء كما ثبت علميا مما قلناه ـ على سبيل المثال ـ وليس على سبيل الحصر . . إذا كان وجود الشىء مختلفا عن إدراك وجوده . . فإذا حدثت عن شىء لا تراه فلا تنكر وجوده . . وإذا كان المتحدث هو الله سبحانه وتعالى . . فالشىء ثابت الوجود كأنك تراه .

حياة الجماد

نعود بعد ذلك إلى حياة الجماد . . وقد أثبتنا بتجربة علمية بسيطة وسهلة أن هناك حركة فى الجماد لا تستطيع أن تدركها بعينك . . ولكنك قد تقول : إن هذه الحركة مجرد تغير ذرات . . نقول لك إن المسألة أعمق من ذلك بكثير . . فالله سبحانه وتعالى يقول :

﴿ فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ وَمَا كَانُوا مُنظَرِينَ ﴿٢٩﴾ ﴾

(الآية ٢٩ من سورة الدخان)

.. إذن فالسماء والأرض ، وهما كما ترى بعينك المجردة ليس فيهما حياة ، تبكيان .. ورسول الله صلى الله عليه وسلم يقول .. (إذا مات العبد الصالح بكى عليه موضعان : موضع سجوده ، وموضع صعود صلاته ودعواته) .

إذن فالأرض بنص القرآن تبكى ، ولكننا لا نسمع بكاءها .. ومادام هناك بكاء فلابد أن يسبقه حس وعاطفة .. إذن فهذا الجماد الذى تعتقد أنه لا حياة فيه .. فيه حس وفيه عاطفة .. ولكنك لا تعرف عنهما شيئا ولا تدرك وجودهما .. فإذا سمعت هذا فلا تنكره .. ولكن قل إن الوجود شىء ، وإدراك هذا الوجود شىء آخر .. ورسول الله صلى الله عليه وسلم سمع تسبيح الحصى فى يديه .. ولكن هل معنى أن الرسول صلى الله عليه وسلم سمع هذا التسبيح والحصى فى يده .. هل معنى هذا أن الحصى لا يسبح فى غير يد رسول الله صلى الله عليه وسلم .. الحصى يسبح ، سواء كان فى يد نبى أو فى يد غيره من البشر .. أو لو لم تمسسه يد .. مصداقا لقول الله سبحانه وتعالى :

﴿ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ﴾

(الآية ٤٤ من سورة الاسراء)

.. والحق سبحانه وتعالى يقول :

﴿ وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُۥدَ ٱلْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ ﴾

(من الآية ٧٩ من سورة الأنبياء)

إذن فالجبال تسبح .. والحصى يسبح .. وكل شىء فى الكون دائم التسبيح لله سبحانه وتعالى .. ولكننا لا نفهم هذا التسبيح ولا نفقهه .. والسماء تبكى والأرض تبكى وقد يضحكان ، ولكننا لا ندرك هذا .. بل إن الأرض وهى أمامنا جماد ليس فيه حياة .. لها حياة ذكر لنا القرآن الكريم لمحة عنها فى قوله تعالى :

﴿ وَتَرَى ٱلْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنۢبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ ۝ ﴾ (الآية ٥ من سورة الحج)

إذن فالأرض لها حياة مع النبات .. فهى تهتز وتصبح هشة حتى تخرج ساق البنات الصغير من داخل الصخرة الصلبة فى الجبل .. كيف اخترقت هذا الساق اللينة هذا الصخر الصلب .. هناك حياة وتفاعلات تمت دون أن نراها بقوانين خلقها الله .. فجعلت هذه الساق الضعيفة الصغيرة تخترق هذا الحجر الصلب وتخرج منه .. بينما لو جئت أنت بفأس من الصلب أو آلة حادة .. ربما تفشل فى تحطيم هذا الصخر أو إحداث ثقب فيه .. ولكنه كون كل شىء فيه حي ويؤدى مهمته .. ومهمة الصخرة أن تلين وتصبح هشة تخرج منها ساق النبات دون تدخل يد إنسان ليتم ذلك .. إذن فهناك حياة فى الجماد .

الحجــارة .. والحيــاة

فإذا أردنا أن نزيد ، وهذا الموضوع يمكن أن نمضى فيه بلا نهاية .. نتأمل قول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَهِىَ كَٱلْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً وَإِنَّ مِنَ ٱلْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ ٱلْأَنْهَـٰرُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ ٱلْمَآءُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ وَمَا ٱللَّهُ بِغَـٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ (٧٤) ﴾

(الآية ٧٤ من سورة البقرة)

إذن فالحجارة التى تحسبها لا حياة لها .. يتفجر منها الأنهار .. ويخرج منها الماء .. وتهبط من خشية الله .. أليست هذه ألوانا من الحياة نحن غافلون عنها .. وهكذا بين الله سبحانه وتعالى لنا فى القرآن الكريم ألوانا من الحياة فى الجماد .. ولكنه لم يحطنا بكل تفاصيل حياة الجماد .. وإنما أعطانا آيات ترينا أن الجماد له حس وله حركة .. وله مهمة فى الحياة .. وله حياة ليؤدى هذه المهمة .. وعرفنا أن الجماد يبكى مصداقا لقوله تعالى :

﴿ فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ وَمَا كَانُواْ مُنظَرِينَ (٢٩) ﴾

(الآيلا ٢٩ من سورة الدخان)

.. وعرفنا ألوانا أخرى من حياة الجماد ، منها اهتزاز الأرض إذا نزل عليها الماء ليخرج منها الزرع .. وهكذا نجد أن حياة الجماد حياة كاملة .. فيها لغة وهى التى يسبح بها الجبال والحصى .. وفيها انفعال إذا نزل الماء على الأرض الساكنة .. وفيها تفاعل مثل ذرات الحديد والمغناطيس .. وفيها دورة حياة عرفنا لمحات منها والباقى لم يكشفه الله لنا .

نأتى بعد ذلك إلى النبات . . نقول إن النبات فيه نوع من الحياة هو خاصية النمو . . ولكننا نقول إن الحياة فى النبات فيها كل صفات الحياة . . فالنبات يسبح ، إذن فهناك لغة . . والنبات له خاصية النمو . . ولكن هذا ليس كل شىء . . فالنبات له خاصية الاختيار . . أى أنه يختار بين البدائل . . قد يبدو ذلك غريبا لأن الذى يختار هو الانسان . . ولكن الانسان اختياره بعقله . . وهو قادر على أن يفعل أو لا يفعل . . ولكن النبات اختياره اختيار غريزى . . كيف ؟

. . عندما نروى الأرض نرويها بالماء لينبت الزرع . . وينزل الماء ليختلط بمواد الأرض . . وتمتص الغذاء جذور فى التربة لتعطيها للنبات . . هذه هى طريقة تغذية النبات . . ولكن كيف يتم ذلك ؟

. . قالوا إنه يتم بواسطة نظرية الضغط الأسموزى . . أى أن الضغط خارج شعيرات الجذور يكون أعلى من داخلها . . فيدخل الماء مختلطا بالمواد المغذية للنبات داخل الشعيرات ليغذى النبات . . وجاءوا لنا بعدد من هذه الأنابيب الشعرية ، ووضعوها فى إناء فدخل السائل فيها وارتفع . . وقالوا هذه النظرية هى التى يتم على أساسها غذاء النبات ، ولا يوجد أى نوع من الحياة . . نقول لهم . . هذه النظرية صحيحة ، ولكن ينقصها شىء واحد . . هو الاختيار الذى يتم . . لو أن كل النباتات كانت تنبت ثمرا واحدا لكانت هذه النظرية وحدها هى سر حياة النبات . . ولكننا نزرع الأنواع المختلفة من النبات . . هذا حلو ، وهذا مر ، وهذا حريف . . نزرعها كلها فى أرض واحدة . . ونسقيها بماء واحد . . ومع ذلك تنبت هذه الثمار

المختلفة فى الشكل واللون والطعم .

من الذى جعل كل جذر من جذور نبات معين يمتص من الأرض تلك العناصر التى تعطى نوع الثمرة تنبتها هذه الشجرة بالذات ؟ . . كلها جذوع متساوية فى التكوين تقريبا . . ولكن لكل واحد منها عناصر معينة . . يأخذها من الأرض لتعطى تكوين الثمرة . . هذه حلوة فتأخذ من الأرض العناصر التى تعطى الحلاوة للثمرة . . وهذه مرة فتأخذ من الأرض العناصر التى تعطى المرارة . . وهذه لونها أصفر فتأخذ من الأرض العناصر التى تكون صفراء اللون . . وهذه لونها أحمر فتأخذ من الأرض العناصر التى تكون اصفرار اللون . . ألوف من الثمر المختلف الألوان . . وكل جذر يأخذ من الأرض هذه العناصر بالذات التى تكون الثمرة التى يثمرها . . بل وأكثر توجد أنواع مختلفة من الثمار . . من ذلك النوع الواحد من التفاح مثلا يوجد التفاح الأحمر ، والتفاح الأصفر ، والتفاح الأخضر ، والتفاح الذى يختلط فيه أكثر من لون . . وكل جذر يأخذ من الأرض المواد اللازمة لتكوين هذه الثمرة بالذات دون تغيير أو تبديل . . ولا يضل جذر أبدا عن المواد اللازمة للثمرة التى تنبتها الشجرة . . بل وأكثر من ذلك فإن امتصاص الجذر للمواد اللازمة للثمرة يختلف فى المراحل المختلفة . . ففى أول الأمر يمتص المواد التى تعطى للثمرة النمو ، ولكن تبقيها جامدة . . لونها أخضر لا طعم لها ولا رائحة .

فإذا تمت المرحلة الأولى أعطاها المواد التى ترقق محتويات الثمرة . . حتى تصبح صالحة للأكل . . ثم بعد ذلك يعطيها المواد اللازمة للون الثمرة . . والمواد اللازمة تكون لها رائحة تجذب الانسان إليها وتحببه

فيها . . فيلتفت الانسان إلى الرائحة فيرى لونا وشكلا جذابا للثمرة فيشتهيها ويقطفها . . كل هذا يتم بنظام غاية فى الدقة تتبدل فيه اختيارات أنواع الغذاء . . حسب كل مرحلة من مراحل النبات . . إذن هناك اختيار فى النبات . . ولكنه اختيار غريزى . . يخضع للغريزة ولا يخضع للعقل . . اختيار تحكمه المهمة التى خلقه الله سبحانه وتعالى من أجلها . . فالحياة فى أى شىء هو أن يكون مناسبا لمهمته .

وهناك فى النبات الذكورة والأنوثة والتناسل . . وهناك نوع من النبات الذى يوجد فى الغابات يتكاثر بأن يقذف البذرة الملقحة بعيدا عن الشجرة . . لتنبت شجيرات جديدة من نفس النبات حتى لا ينقرض . . علم واسع جدا يتقدم مع الزمن لنكتشف كل يوم أشياء مذهلة وأسرارا جديدة فى حياة النبات .

للنبـــات حيـــاة

وهكذا نرى أن للنبات حيلة أوسع كثيرا من مجرد النمو ، وأنها حياة هائلة فيها أسرار كثيرة . . وصلنا إلى بعضها وربما نصل إلى البعض الآخر خلال السنوات القادمة . . ولكنها على كل حال أشياء كثيرة ، وحياة واسعة على أن نظرتنا السطحية للنبات لا تتناسب مع مهمة النبات فى الحياة . . ولعل أبرزها أن النبات هو الرئة التى تتنفس بها الأرض . . والتى تخلص الأرض من التلوث . . ولذلك كلما زادت المساحات الخضراء فى المدن كان الجو صحيا ، والهواء أقرب إلى النقاء . . وكلما قلت هذه المساحات كان الهواء غير صحى ،

والجو أقرب إلى التلوث . . ما معنى هذا كله ؟ . . معناه أن هناك مهمة لكل خلق لله . . وأن حياة كل خلق تناسب مهمته .

فإذا جئنا إلى الحيوان . . أقرب الأشياء لتعريف الحياة بالنسبة للانسان . . وجدنا أننا نصف الحيوان بأنه أبكم . . أى أنه لا يتكلم . . ولكن الحقيقة غير ذلك تماما . . فالقرآن الكريم يحدثنا عن أنبياء الله الذين علمهم الله سبحانه وتعالى منطق المخلوقات ولغتها . . فكانت الجبال تسبح مع داود مصادقا لقوله تعالى :

﴿ وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُدَ ٱلْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ ﴾

(من الآية ٩ من سورة الأنبياء)

وحديث سليمان مع الهدهد . . الذى يقول فيه الحق سبحانه وتعالى عن سليمان :

﴿ وَتَفَقَّدَ ٱلطَّيْرَ فَقَالَ مَالِيَ لَآ أَرَى ٱلْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ ٱلْغَآئِبِينَ ﴿٢٠﴾ لَأُعَذِّبَنَّهُۥ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَاْذْبَحَنَّهُۥٓ أَوْ لَيَأْتِيَنِّي بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٢١﴾ فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ ﴿٢٢﴾ ﴾

(الآيات ٢٠ و ٢١ و ٢٢ من سورة النمل)

إلى آخر الحوار الذى دار بين سليمان عليه السلام والهدهد . . وكيف أن سليمان كلف الهدهد بأن يأخذ كتابا منه ويلقيه إلى بلقيس

وقومها . . كل هذا كان حوارا كلاميا بين سليمان والهدهد . . ذلك الطير الذى نقول عنه إنه لا ينطق . . وحديث النملة الذى ذكر فى القرآن الكريم :

﴿ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَوْاْ عَلَىٰ وَادِ ٱلنَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمْلُ ٱدْخُلُواْ مَسَٰكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَٰنُ وَجُنُودُهُۥ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٨﴾ ﴾

(الآية ١٨ من سورة النمل)

. . وهكذا نجد أنه فى حياة الحشرات والطير والحيوان . . هناك لغات تتحدث بها مع بعضها البعض . . ولكننا لا نسمعها ولا نفهمها . . وأن هناك حياة منظمة بحيث إن النملة قد سمعت وهى تنذر قومها خشية أن يهلكهم سليمان وجنوده . . وأن يعقل الهدد أن هناك من يسجدون للشمس من دون الله .

كل هذه لمحات من حياة الحشرات والطير والحيوان . . لم نكن نعرف وجودها . . ولا أظننا أن هناك حياة لهم يمكن أن تبلغ هذا الرقى وهذا النظام . . ومع ذلك فهناك مثل هذه الحياة .

حياة.. لكل شىء

نكون بذلك قد وصلنا إلى أن هناك حياة لكل ما خلق الله فى هذا الكون . . حياة قد نجهلها . . وحياة قد نعرف منها أشياء ، ونجهل أشياء . . وحياة قد نعرفها كلها . . ولكن كل ما خلق الله فى هذا الكون حياة تناسب مهمته على الأرض .

وإذا كنا قد وصلنا إلى هذه النتيجة . . فلا نستغرب قول الله سبحانه وتعالى :

﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا مَا جَآءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَٰرُهُمْ وَجُلُودُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٢٠﴾ وَقَالُوا۟ لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا ۖ قَالُوٓا۟ أَنطَقَنَا ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنطَقَ كُلَّ شَىْءٍ ﴾

(من الآيتين ٢٠ ، ٢١ من سورة فصلت)

. . لأن الجلود هى من خلق الله سبحانه وتعالى . . ولها لغة تسبح بها ولكن لا نفهمها ولا نسمعها . . وكذلك العين والأذن والأنف . . وكل خلية من خلايا الجسم هى مسبحة لله طائعة له . . ولكنها مسخرة لنا . . فاليد مسخرة فى أن تطيعنى أن أساعد بها مسكينا ، أو رجلا أعمى . . وأن أبطش بها بالضعيف . . واللسان فى الحياة الدنيا مسخر لى . . أستطيع أن أقول به الحق ، وأن قول به الكذب . . وأنطق بكلمة الايمان وكلمة الكفر . . وهو فى هذا يطيعنى وفى هذا يطيعنى .

وكذلك كل أعضاء الجسد . . فإذا جاءت الآخرة انتهى هذا التسخير وزال . . وأصبح اللسان الذى كان مسخرا لخدمتى فى الحياة الدنيا بأمر الله . . خارجا عن أن يكون مسخرا لى ويشهد على . . وكذلك العين . . وكذلك الجلد . . إلى آخره . . وحينئذ تقف كل هذه الأعضاء لتشهد على بالحق . . بما فعلت فى الدنيا من معاص . . وحينئذ يجعلنا الله نفهم لغتها وهى تنطق وتقول الله أنطق كل

شىء . . وهو أعلم بلغة الأجناس كلها . . ويستطيع أن يعطى وأن يهب ما يشاء لمن يشاء .

ولقد خص أنبياءه فى الدنيا بنفحات من هذا العلم . . فأعطى سليمان ملكا لن يعطيه لأحد بعده . . وعلمه منطق الطير ، وآتاه من كل شىء . وكذلك داود . . وكذلك كل من ارتضى الله من عباده . . يعلمه من لدنه علما فيفقه ويفهم ويرى ويسمع . . ما ولا نراه ، ولا نسمعه ، ولا نفهمه . . تلك عظمة الله وتلك حكمة الله .

هذا هو معنى الحياة على الأرض . . كل شىء فيه حياة . . وساعة الخلق كل شىء وجد بكلمة « كن » . . وعلى الهيئة التى أرادها الله سبحانه وتعالى . . وكل قضايا الكون لمسها القرآن ليعطينا من العلم ما سيكشفه لنا الله سبحانه وتعالى إلى يوم القيامة . . حين نظن أننا قد وصلنا إلى العلم الذى مكننا من السيطرة على الأرض . . مصادقا لقوله تعالى :

﴿ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ ٱلْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَٱزَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَآ أَنَّهُمْ قَـٰدِرُونَ عَلَيْهَآ أَتَىٰهَآ أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا ﴾

(من الآية ٢٤ من سورة يونس)

. . أى بالليل أو بالنهار . . لأننا كما نعرف فإن نصف الكرة مضىء ونصفها مظلم . . وفى ذلك يقول الله سبحانه وتعالى :

وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ خِلْفَةً (من الآية ٦٢ من سورة الفرقان)

وتأمل قول الحق سبحانه وتعالى : « خِلْفَةً » . . أى يخلف أحدهما الآخر . . ومعنى الخلفة أن هذا يخلف هذا . . وردية حراسة ـ مثلا ـ تخلفها وردية حراسة . . وردية عمل تخلفها وردية عمل خلال الأربع والعشرين ساعة .

لكن قول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ خِلْفَةً ﴾

تحمل معنى أعمق من هذا بكثير . . لأنه فى كل عمل لابد من بداية . . وإذا قلنا أن دورية الحراسة هذه تخلف ما قبلها فلابد عند البداية أن تكون هناك وردية قد جاءت . . هى الوردية الأولى . . لم تخلف وردية كانت قبلها . . وإنما جاءت دون أن تكون خلفة لشىء .

وكذلك عندما بدأ المصنع العمل . . فإن الوردية الأولى التى بدأت العمل لم تخلف وردية كانت قبلها . . ولكن الحق سبحانه وتعالى يقول :

﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ خِلْفَةً ﴾

. . ومعنى ذلك أنه لم تكن هناك بداية لليل وحده ثم جاء النهار . . ولم تكن هناك بداية للنهار وحده ، ثم جاء الليل . . بل منذ الوجود الأول كانا معا ليخلف كل منهما الآخر . . وهذا دليل على كروية الأرض . . لأنه ساعة خلق الأرض وجد الليل والنهار معا فى لحظة الخلق . . فهما خلفة منذ وجدا . . وهذا من إعجاز القرآن الكريم .

المــوت .. والحيــاة

بقيت بعد ذلك نقطتان : النقطة الأولى .. كيف سيعذب الله الجلود والأعين والألسنة ، وهى عابدة لله مسبحة له .. وذلك مصداقا لقوله سبحانه وتعالى :

﴿ كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم بَدَّلْنَـٰهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُواْ ٱلْعَذَابَ ﴾

(من الآية ٥٦ من سورة النساء)

.. نقول إن هذه الأعضاء كلها ستكون سعيدة ، وهى تحرق العاصى لله الكافر به .. كما ستكون الحجارة سعيدة ، وهى مشتعلة بالنار لتحرق أولئك الذين عبدوها وكفروا بالله .. كل هذه الأشياء المطيعة لله والتى تستخدم فى إذاقة العذاب للنفس البشرية ستكون سعيدة ، لأنها تذيق العذاب لعاصٍ كفر بنعمة الله .

والنقطة الثانية هى قول الله سبحانه وتعالى :

﴿ يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ ٱلْمَيِّتِ مِنَ ٱلْحَىِّ ﴾

(من الآية ٩٥ من سورة الأنعام)

.. ولقد حاول العلماء أن يصلوا إلى معنى الحى ، ومعنى الميت .. ومادام كل شىء حيا .. فكيف يخلق الله الحى من الميت .. نقول : إن الحياة فى خلق الله .. هى أن يؤدى الموجود مهمته .. أى أن كل شىء حى له مهمة فى الحياة .. فإذا انتهت هذه المهمة .. خرج من مفهوم الحياة الدنيوية وأصبح ميتا .. ولذلك فإن

الشجرة ـ مثلا ـ إذا أعطت كل ما فيها من ثمار تموت بعد ذلك ، وتخرج من الحياة ، لأنها أدت مهمتها .

وكذلك الانسان عندما تنتهى مهمته فى الحياة ويمر بفترة الاختبار التى قدرها الله له . ويمتحن ويختبر مرة ومرات تنتهى حياته . . بعد أن انتهت المهمة التى جاء من أجلها للحياة ، وهى فترة الاختبار التى مر بها .

وكذلك الحيوان والنبات والجماد . . فالله أعطى الانسان حياة حس وحركة فى الدنيا . . ثم أعطاه حياة أخرى فى الآخرة يسعد بها حياته فى الدنيا ، ويجعل لها قيمة . . فالنعم فى الدنيا للمؤمن والكافر . . ولكنها فى الآخر للمؤمن وحده .

هنا نتوقف عند قوله تعالى :

﴿ يُخْرِجُ ٱلْحَيَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ ﴾

فمادام كل شيء فى الدنيا فيه حياة . . فأين هو الميت الذى ستخرج منه الحياة ؟ . . والحياة عرفنا أنها فى الانسان والحيوان والنبات والجماد . . فإذا كان كل ما فى الكون حيا فأين هو الميت ؟ وقبل أن نبدأ الاجابة على هذا السؤال ونحن نعرف أن من أسماء الله الحسنى المحيى والمميت . . لابد أن نوضح أن أسماء الله سبحانه وتعالى تدل على الثبوت ، وعلى الحدوث معا . . فالحق تبارك وتعالى له صفة فى ذاته . . وصفة فى متعلقات هذه الذات . . فإذا قلنا أن الله هو الرزاق . . فهذه صفة للحق تبارك وتعالى قبل أن يكون هناك مخلوق يرزقه الله . . والله سبحانه وتعالى رزاق قبل أن يخلق من يحتاج

إلى الرزق . . ولو أنه سبحانه وتعالى لم يكن رزاقا قبل أن يوجد من يرزقه فكيف يستطيع أن يرزق خلقه لحظة وجودهم . . وإذا لم يكن سبحانه وتعالى هو الخالق قبل أن يبدأ الخلق فبأى صفة يتم هذا الخلق ويبدئه ؟ لابد أن توجد الصفة أولا قبل أن يوجد الفعل .

فالله سبحانه وتعالى خالق قبل أن يخلق أحدا . . والخلق بدأ أولا بوجود صفة الخالق فى الله تبارك وتعالى حتى قبل أن يوجد مخلوق واحد . . إذن فالخلق صفة لذات الله موجودة قبل أن توجد أفعال هذه الصفة . . والله محيى قبل أن توجد الحياة . . ومميت قبل أن يوجد الموت . . إذن فالصفة موجودة فى الذات . . فالله قبل أن يخلق كان خالقا . . وقبل أن يقدر كان قادرا . . وقبل أن يحيى ويميت كان محييا ومميتا .

﴿ يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ ٱلْمَيِّتِ مِنَ ٱلْحَىِّ ﴾

قبل أن تكون هناك حياة ووجود . . وإذا أخذنا قول الله سبحانه وتعالى :

﴿ يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ ٱلْمَيِّتِ مِنَ ٱلْحَىِّ ﴾

بمعناها السطحى . . فنحن لا نرى فى أشياء كثيرة حياة الحس والحركة كما نفهمها . . وعدد كبير من الحيوانات التى تبيض ولا تلد لا نرى فى بيضها حياة . . ومع ذلك يخرج الصغار من هذا البيض . . والمرأة قد تلد طفلا ميتا . . والبيض قد لا تخرج منه حياة .

ولكن إذا أردنا أن نتعمق . . فإننا يجب أن نأخذ المعنى على أنه كما أن الحياة خلق . . فالموت أيضا خلق مصداقا لقوله تعالى :

﴿ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴾

(من الآية ٢ سورة الملك)

إذن فالحياة خلق والموت خلق . . ونلاحظ أن الحق سبحانه وتعالى قد ذكر الموت قبل الحياة فقال :

﴿ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴾

. . فإذا كنا نعيش فى هذه الدنيا خلق الحياة . . فإننا نعيش خلق الموت عندما نغادر هذه الحياة . . وكل خلق له قوانينه وله عالمه . . وله وجوده الذى لا نحس به . . ومادامت الحياة والموت خلقا . . والله سبحانه وتعالى وحده هو الخالق فكل شىء يأتى إلى الحياة هو من الله . . وكل شىء يذهب عن هذه الحياة فهو إلى الله . . وانتقال الشىء من عالم الحياة إلى عالم الموت هو ما يطلق عليه الله سبحانه وتعالى الموت والحياة .

فنحن قبل أن نأتى إلى هذه الدنيا كنا مخلوقين ولكن كنا أمواتا لم تكن لنا حياة فى هذا العالم . . ثم جئنا إلى هذا العالم فأصبحت لنا حياة . . ثم نغادر هذا العالم فنصبح أمواتا ثم نعود مرة أخرى إلى عالم الحياة الأبدية . . وفى ذلك يقول الحق سبحانه وتعالى :

معنى الحيـــاة

﴿ كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (٢٨) ﴾

(الآية ٢٨ من سورة البقرة)

. . أى أننا كنا أمواتا قبل أن نأتى إلى هذه الحياة الدنيا ، ثم انتقلنا من عالم الموت إلى عالم الحياة فى الدنيا ثم ننتقل مرة أخرى إلى عالم الحياة لنحاسب يوم القيامة ، ثم نعود إلى الله . . إما أن يعذبنا وإما أن ينعمنا .

فكأننا ونحن أحياء فى عالم الذر كنا أمواتا فى عالم الدنيا .

وعندما انتقلنا من عالم الذر إلى عالم الحياة الدنيا أصبحنا أحياء . . ثم نغادر الحياة الدنيا إلى حياة البرزخ لنعود مرة أخرى أمواتا فى عالم الدنيا . . ثم نبعث ونخرج أحياء من نفس الأرض . . ثم هناك الحساب والخلود .

وعندما يأتى الخلود لا يكون هناك موت . . أى أن عالم الموت ينتهى يوم القيامة بالنسبة للمؤمن والكافر . . ولكن يكون هناك خلود . . خلود فى النعيم . . أو خلود فى العذاب . . ولكن عالم الموت ينتهى .

إذن فعالم الموت موجود حتى يوم القيامة . . ثم ينتهى . . أما عالم الحياة فموجود كخلود بعد يوم القيامة . . بهذا نكون قد عرفنا أن الحياة هى خروج من عالم خلقه الله له قوانينه إلى عالم الحياة الدنيا الذى له قوانين مختلفة تماما . . والموت هو خروج من عالم الدنيا إلى عالم آخر من خلق الله . . فكأن الله سبحانه وتعالى هو القادر وحده

أن يخرج مخلوقاته من عالم الموت إلى عالم الحياة الدنيا . . ويخرجها من عالم الحياة الدنيا إلى عالم الموت . . ولا قدرة لأحد . . ولذلك تأمل دقة القرآن الكريم فى قوله تعالى :

﴿ يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ ٱلْمَيِّتِ مِنَ ٱلْحَىِّ ﴾

يخرج الحى من الميت . . أى أن الله سبحانه وتعالى هو الذى يأتى بكل شىء إلى عالم الحياة دون أن يكتب على نفسه شيئا . . فهو يخرج من يشاء من عالم الموت إلى عالم الحياة . . ولكن متى جاء الانسان إلى عالم الحياة ، ثم مات . . فإن الله لابد أن يخرجه يوم القيامة من عالم الموت إلى عالم الحياة . . أى لابد أن يبعثه . . فقبل المجىء إلى الدنيا لم يكتب الله على نفسه شيئا . . ولكن الله سبحانه وتعالى كتب على نفسه أن كل من يأتى إلى الدنيا لابد أن يبعث يوم القيامة : وعدا عليه حقا . . مصداقا لقوله تعالى :

﴿ وَيَوْمَ نُسَيِّرُ ٱلْجِبَالَ وَتَرَى ٱلْأَرْضَ بَارِزَةً وَحَشَرْنَٰهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا ﴿٤٧﴾ ﴾

(الآية ٤٧ من سورة الكهف)

. . فكل من جاء من عالم الذر إلى عالم الحياة الدنيا وانتقل إلى عالم الموت لابد مبعوث يوم القيامة . . ولذلك اختلف التعبير فقال الحق :

﴿ يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ ٱلْمَيِّتِ مِنَ ٱلْحَىِّ ﴾

إلى هنانكون قد تحدثنا عن الحياة بمفهومها العميق . . وتحدثنا عن

خلق الحياة وخلق الموت . . بقى أن نتحدث عن مشاهد يوم القيامة . . وقبل أن نبدأ فيها فإن هناك علامات للساعة . . لابد أن نمر عليها مرورا سريعا وهذا هو موضوع الفصل القادم إن شاء الله .

■ ■ ■

الفصل الثالث

نهاية الدنيا

قبل أن نبدأ الحديث عن أحداث يوم القيامة ، فإنه لابد من حديث عن معنى الساعة .. ذلك أن بعض الناس يشغلون أنفسهم بأشياء كثيرة عن موعد قيام الساعة ، ومتى تقع .. إلى آخر ما نسمعه من أسئلة بين عدد من الناس .. ومن تنبؤات بين عدد من العلماء .. بعضهم يقول : إن الأرض ستبتعد عن الشمس فيتجمد كل شيء .. والبعض الآخر يقول : إن الأرض ستقترب من الشمس ، فيحترق فيها كل شيء .. والبعض الثالث يقول : إن الأكسجين سيقل من الأرض لتصبح غير صالحة للحياة .

كل هذه وغيرها تنبؤات تقوم على الظن ، وليس على اليقين . . فحتى الآن لا أحد يعرف يقينا ماذا سيحدث . . ولا متى سيحدث . . نقول لهؤلاء جميعا . . لقد شغلتم أنفسكم بعلم لا ينفع وجهل لا يضر . . ذلك أنه مهما كان عمر الأرض ملايين السنين فأنا لا يعنيني منها إلا فترة بسيطة جدا هي فترة عمري . . فقبل أن أولد لا علاقة لي بالحياة على الأرض . . وبعد أن أموت لا علاقة لي بالحياة على الأرض . . إذن فموعد القيامة بالنسبة لي هو موعد انتهاء حياتي على الأرض . . فمن مات قامت قيامته . . لماذا ؟ . . لأنه يرى كل شيء . . يرى ملائكة الرحمة ، وملائكة العذاب . . ويرى أشياء كثيرة لم يكن يراها في الدنيا . . وبالنسبة له تنتهي فترة الاختبار التي هي المدخل إلى يوم القيامة . . لذلك يقول الحق سبحانه :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَوَلَّوْاْ قَوْمًا غَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ قَدْ يَئِسُواْ مِنَ ٱلْأٓخِرَةِ كَمَا يَئِسَ ٱلْكُفَّارُ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْقُبُورِ ﴿١٣﴾ ﴾

(الآية ١٣ من سورة الممتحنة)

لماذا قال الله سبحانه وتعالى :

﴿ كَمَا يَئِسَ الْكُفَّارُ مِنْ أَصْحَابِ الْقُبُورِ ﴿١٣﴾ ﴾

لأن الذى يموت كافرا .. يعلم يقينا أن لا أمل له إلا العذاب فى الآخرة .. ولأنه رأى فهو يعرف أن لا أمل له فى دخول الجنة .. وأن لا أمل له فى النجاة من النار .. وهذا اليأس يصبح يأسا يقينيا .. فالانسان يعرف مصيره ساعة يحتضر .. تلك اللحظات التى هى بين الموت والحياة .. يشاهد فيها الانسان كل ما أخفى عنه .. تلك الساعة التى تغادر فيها الروح الجسد .. أى سكرة الموت كما يسميها الله سبحانه وتعالى .. تلك اللحظات التى تخمد فيها بشرية الانسان .. وتنتهى فيها حياة الاستعلاء وحياة الكبر ، وكل مظاهر الحياة الدنيوية بكل ما فيها ومن فيها .

وإذا أردت أن تشهد ذلك فانظر إلى إنسان قد تجبّر وعلا وأعطاه الله أسباب الملك فى الدنيا .. تجده ساعة الاحتضار ضعيفا ذليلا عاجزا .. كل مظاهر الاستعلاء ذهبت .. ينظر إليك فى مسكنة غريبة ، ويحاول أن يستنجد بكل من حوله .. ولكن الكل عاجزون .. فى هذه اللحظة يأخذ الانسان مقدمات الغيب .. ويرى ما أخبره الله سبحانه وتعالى عنه ، ولم يكن يصدقه .. ذلك لأن بشريته الآن قد خمدت .. ومادامت البشرية خمدت ، تهب نفحات الغيب .. وفى هذا يقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ ذَٰلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ ﴿١٩﴾ ﴾

(الآية ١٩ من سورة ق)

أى ما كنت نظن أنه لن يقع . . أو تحاول ألا تتذكره ، وألا تعترف به ، وكنت تظن أن هذه اللحظة لن تأتى . . فإذا أتت فأنت تتوهم بأن شيئا لن يحدث فيها . . فى هذه اللحظات بالذات لا تنفع التوبة . . ولا يجدى الاستغفار . . فمع سكرة الموت ينقطع عمل الانسان الدنيوى . . وتأتى الساعة التى ينتقل فيها كل منا إلى عالم البرزخ لينتظر الحساب . . وفى هذا يقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ فَلَوْلَآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلْحُلْقُومَ ﴿٨٣﴾ وَأَنتُمْ حِينَئِذٍ تَنظُرُونَ ﴿٨٤﴾ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُبْصِرُونَ ﴿٨٥﴾ ﴾

(الآيات ٨٣ و ٨٤ و ٨٥ من سورة الواقعة)

. . أى أن الانسان وهو يحتضر يكون أقرب إلى ملكوت الله من أولئك الذين يقفون حوله ساعة الاحتضار . . ومع أن أهل المحتضر يحيطون به إحاطة لصيقة عن قرب فى هذه الساعة العصيبة . . فإن ملكوت الله يكون أقرب منهم إليه . . وتحيط بالانسان فى هذه الحالة إما ملائكة الرحمة إذا كان صالحا . . أو زبانية جهنم ـ والعياذ بالله ـ إذا كان فاسقا .

أخـــرجـوا أنفســكم

على أننا لابد أن نتوقف عند قول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِى غَمَرَٰتِ ٱلْمَوْتِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَاسِطُوٓا۟ أَيْدِيهِمْ ﴾

﴿ أَخْرِجُوٓاْ أَنفُسَكُمُ ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ ﴾

(من الآية ٩٣ من سورة الأنعام)

نتوقف عند قول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ أَخْرِجُوٓاْ أَنفُسَكُمُ ﴾

والنفس كما قلنا هى التقاء الروح بالجسد . . فكيف يطلب الملائكة من الظالم المحتضر أن يخرج نفسه .

لكى نفهم هذه الآية لابد أن نضع فى أذهاننا أن هذا المحتضر كان كافرا بالله وكذوبا بالبعث . . وحينئذ إذا جاءت ساعة الاحتضار يكون حوله ملائكة العذاب أو زبانية جهنم . . يقولون له هأنتذا ترى الآن ما كنت تكذب به . . وترى العذاب الذى ينتظرك . . فإن كان لك قوة أو قدرة كما كنت تدعى فى الحياة الدنيا فأخرج نفسك مما ينتظرك . . اهرب من العذاب الشديد الذى سوف تلاقيه . . أرنا أين ستذهب . . لقد كانت لك قدرة فى الحياة الدنيا . . قدرة من الله ولكنك بدلا من أن تستخدمها فى شكر الله . . انطلقت تقول على الله غير الحق . . وتستكبر فى الأرض ، وتبارز الله بالمعاصى ، ولكنك الآن خامد خافت . . لا تملك شيئا لنفسك ، ولا صوتا تستجير به بأنصارك . . فأنت ترى العذاب وهو واقع بك ، ولن تفلت منه .

ملائكة الرحمة

والمؤمن يرى الملائكة أيضا ، ولكنه يرى ملائكة الرحمة الذين

يبشرونه بالجنة ، ويستقبلونه بالسلام ، ويكون فرحا مستبشرا . . فالانسان حين يحتضر تكون قيامته قد قامت ، ولا علاقة له بالأيام والأحداث القادمة إلى الدنيا . . فهو قد انتهى دوره عند هذه اللحظة ، وانتهت مهمته فى الحياة ، وانتقل إلى عالم القيامة : عالم الحساب لينتظر يوم تقوم الساعة .

ولذلك فإننا نقول لكل من يجهدون أنفسهم فى أشياء هى من علم الغيب ، ولم يصلوا إليها يقينا . . نقول لهم : لا تجهدوا أنفسهم فى أشياء هى من علم الغيب ، ولم يصلوا إليها يقينا . . فمادام الله قد أخفى وجعل علم الساعة عنده . . فلا أحد يعلمها سواه . . وحتى لو علمتها فماذا ستستفيد منها . . لنفرض أننى علمت أن الساعة ستقوم بعد ألف سنة . . ماذا سيفيدنى ذلك ؟ . . هل سأعيش ألف عام أتأثر بأحداث الأرض والحياة وتتأثر بى . . أم أن المسألة ستنتهى بعد سنوات ، طالت أم قصرت . . وحتى لو أننى قلت للناس إن القيامة ستقوم بعد ألف سنة . . فماذا يستفيدون ؟ . . معظمهم سيقابل هذا الكلام بالسخرية ، وعدم التقدير . . وآخرون سيقولون : مالنا نحن وما سيحدث بعد هذ الفترة الطويلة ؟!

إذن لو عرفنا موعد الساعة ما كان ذلك ليفيدنا على المدى الطويل . . فإذا نظرنا إليها على المدى القصير . . أو تصديقا لقول رسول الله صلى الله عليه وسلم : (من مات قامت قيامته) . . إذا نظرنا إليها من هذه الزاوية . . وهى أن القيامة الصغرى عندما يموت الانسان ، والقيامة الكبرى فى آخر الزمان . . نجد أيضا أن الأجل قد أخفى عنا . . لماذا ؟ . . لنتوقع الموت فى كل لحظة ودقيقة فيسارع

كل منا إلى الخير قدر امكانه . . ويبتعد عن الشر قدر استطاعته . . ولو أن الأجل محدد معلوم لأثر ذلك على استمرارية الخير فى الكون . . ولزاد من استمرارية الشر .

فإذا علمت أن أجلى مثلا خمس وستون سنة ، فإننى أظل اتبع أهوائى وشهواتى إلى سن الستين ثم أتوب بعد ذلك . . وبذلك نكون قد أعطينا استمرارية للشر فى الكون . . وبخاصة أن ذلك سينطبق على معظم الناس . . وفى نفس الوقت فإن كلا منا إذا عرف أجله أجل الخير إلى السنوات الأخيرة من عمره . . فنكون بذلك قد قطعنا استمرار الخير . . ولكن حتى يستمر الخير فى الكون ، ويسارع كل منا إليه . . فإن الأجل المخفى هو السبيل .

على أنه حتى لو قلت لانسان : إن عمرك سينتهى بعد عام أو عامين ، أو شهر أو شهرين ، فإنه لا يصدقك . . وسيظل يراوده الأمل فى أنه سيعيش أكثر . . ولا يحس الانسان بيقين الموت إلا ساعة الاحتضار . . ففى هذه الساعة يعرف الانسان يقينا أنه سيموت . . ولكن حتى قبلها بساعات ، ومهما اشتد المرض عليه فإن الأمل يظل يراوده فى أنه سيشفى ويعيش .

إذن فالبحث عن موعد الساعة سواء كان نهاية للأجل أو نهاية للكون . . لابد أن نتركه لأننا لن نصل فيه إلى شىء . . وعندما ينتقل الانسان من حياة الدنيا إلى حياة البرزخ . . فإنه ينتقل من حياة لها قوانينها إلى حياة أخرى لها قوانينها المختلفة .

والله سبحانه وتعالى أراد أن يقرب ذلك إلى أذهاننا فأعطانا قانونين مختلفين فى حياتنا . . هما قانون اليقظة . . وقانون النوم . . فالانسان

وهو مستيقظ يحس بالأحداث . . يؤثر فيها ويتأثر بها . . ويحس بالزمن . . ويرى بعينيه ويمشى بقدميه . . إلى آخر ما نعرفه عن حياة اليقظة . . فإذا نام رأى نفسه يمشى وهو نائم . . قدماه لم تتحركا من فوق السرير . . ويرى وعيناه مغلقتان . . ويتحدث مع من انتقلوا إلى الحياة الآخرة . . ويرى أشياء عجيبة تحدث له وأماكن غريبة يذهب إليها . . كيف يتم ذلك وهو ملقى على السرير بلا حراك . . عيناه مغمضتان لا يدرى بما يحدث حوله . . غائب عن الزمن . .

نقول لأن هناك قانونا للنوم يختلف تماما عن قانون اليقظة . . فهناك بصر يرى بخلاف العينين . . وحركة تتم دون تحرك الجسد . . وأشياء تحدث لا تخضع لقوانين الجسد البشرى ولا يعرف العلم عنها شيئا . . فإذا حدثنا عن أن هناك قوانين بعد الموت مختلفة تماما عن قوانين الحياة فى الدنيا . . فلنأخذ من الاختلاف بين قانونى اليقظة والنوم ما يقرب هذه الصورة لأذهاننا . . وحينئذ تستطيع عقولنا أن تفهم .

العلامات الصغرى

على أننا لابد أن نتوقف لنعرف أن للساعة علامات أنبأنا عنها رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقد تحققت العلامات الصغرى التى أنبأنا عنها رسول الله صلى الله عليه وسلم كلها . . أما العلامات الكبرى فهى لم تتحقق بعد . . بعض الناس هنا يتساءل : إذا كان علم موعد الساعة لا يفيدنا ، فلماذا تحدث رسول الله صلى الله عليه وسلم عن علامات اقتراب الساعة :

نقول : إن هذه الأحاديث لرسول الله صلى الله عليه وسلم لا تعطينا موعد الساعة . . فإنها لا تقول لنا : إنه إذا تحقق كذا وكذا وكذا فانتظر الساعة بعد مائة عام أو ألف عام . . ولكنها تذكرة لأولئك الذين سيعم الفساد بينهم كلما اقترب موعد الساعة . . تذكرة لهم تطالبهم بأن يتنبهوا جيدا إلى أن ما يحدث فى الكون هو من قدرة الله سبحانه وتعالى وامتداد لرسالة رسول الله صلى الله عليه وسلم . . حتى إذا قرأناها ورأيناها قد تحققت نقول : صدق رسول الله صلى الله عليه وسلم . . ونتذكر المنهج الذى بعث به الله رسوله صلى الله عليه وسلم . . فنسارع باتباع المنهج ، وتكون علامات الساعة هذه تذكرة لنا بصدق الرسالة التى بعث بها الرسول الكريم . . وتكون من المعجزات المستمرة لرسول الله عليه الصلاة والسلام . . كلما تحققت نبوءة لرسول الله صلى الله عليه وسلم . . كانت بمثابة معجزة جديدة لنا تثبتنا على الايمان . . كما ثبتت المعجزات التى حدثت فى عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم صحابة رسول الله على الايمان . . فكأن رسالة رسول الله صلى الله عليه وسلم متجددة وليست متجمدة . . بأشياء رواها تحدث الآن . . وأشياء رواها ستحدث فى المستقبل . . كلما حدث شىء قلنا : هذا حق . . ورسول الله حق . . وكانت لفتة إيمانية تعيد الناس إلى المنهج الذى نسوه وتركوه بمرور الزمن .

إذن فالعلامات الصغرى للقيامة فيها تثبيت للايمان . . وفيها إعجاز يفيق الناس الذين غفلوا عن منهج الله . . ولكن ليس فيها ولكن ليس فيها ما يمكن منه أن نحدد موعد يوم القيامة . . ربما يكون

الموعد قريبا . . ولكن القريب عند الله بعيد عندنا مصداقا لقوله تعالى :

﴿ تَعْرُجُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ إِلَيْهِ فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ ﴿٤﴾ ﴾

(الآية ٤ من سورة المعارج)

. . وقوله تعالى :

﴿ إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُۥ بَعِيدًا ﴿٦﴾ وَنَرَىٰهُ قَرِيبًا ﴿٧﴾ ﴾

(الآيتان ٦ و ٧ من سورة المعارج)

إذن فالقرب والبعد عند لله مختلف عن مفهومنا . . الساعة قريبة نعم . . بعد أن أردنا أن نضعها فى إطار عام . . هى اختلال الموازين وانقلاب المبادىء . . فبهذا الكون موازين أخلاقية كان من المفروض أن تحكم الحياة بين الناس . . وكانت هى الطريق السوى الذى لابد أن يمضى بها هذا الكون ليصلح . . هذه الموازين والقيم الأخلاقية التى كانت سائدة تختل وتهتز وتنقلب . . فيصبح ما هو مستنكر واقعا . . وما هو واقع وحقيقة مستنكرا .

ترى الشح المطاع بأن كل إنسان لا يعطى ما عنده ، بل يبخل به . . وليس الشح هنا شح المال . . ولكنه شح فى كل شىء . . الصانع لا يعطى صنعته . . كل علمه وإتقانه . . والأستاذ لا يعطى تلاميذه كل ما يعلم ، بل يعطيهم إياه على قدر الأجر . . فجزء فى المدرسة ، وجزء فى الدرس الخصوصى ، وجزء فى الدرس الخاص جدا ، يبخل الناس بمالهم فلا ينفقونه فى سبيل الله ، ولا يعطونه للفقير والمحتاج . . ويبخل العامل بعمله فتجده يستطيع أن يعمل

ولكنه لا يعمل . . ويبخل الموظف بجهده . . فنجد أنه يستطيع أن ينتج ، ولكنه لا ينتج . . وكل عمل يبخل العاملون فيه بجهدهم .

فهناك بخل من كل ذى قدرة بقدرته . . وبخل من كل ذى علم بعلمه . . وبخل من كل ذى جاه بجاهه . . أى أن الانسان يكون فى مجتمعه مسموع الكلمة مطاع الأمر . . ولكنه يرفض أن يستخدم ماوهبه الله له فى مساعدة المحتاجين . . أو إنصاف المظلومين ، أو قضاء الحاجات . . وهو يستطيع أن يفعل ذلك بكلمة واحدة . . ولكنه لا يفعل . .

يجد الانسان أنه يستطيع أن يرفع ظلما يقع فلا يتحرك ليمحو هذا الظلم . . ويجد أنه يستطيع أن يقر الحق بشهادة يقولها ، ولكنه لا يذهب لأداء هذه الشهادة . . كل إنسان يبخل بما عنده . . لتنحدر الانسانية بعد ذلك إلى أسفل السافلين . . لأن كل جيل سيأخذ من علم الجيل الذى قبله القشور . . وبهذا تضمحل الحضارات جيلا بعد جيل . . هذا هو معنى الشمح المطاع . . ولعلنا نشهده الآن فى الدنيا كلها . . ولعلنا نرى جميعا أن كل جيل هو أقل عطاء من الجيل الذى قبله . . ويقل العطاء كلما مضت الأيام . . وهكذا نجد فى كل أوجه الحياة شحا مطاعا ينبئنا عن بداية انحدار الانسانية إلى الهاوية . . بينما المجتمعات التى سبقت كانت قائمة على العطاء بلا حدود ، حتى إن الأنصار عرضوا على المهاجرين أن يتنازلوا لهم عن نصف أموالهم وزوجاتهم بلا مقابل .

اختــــلال المـــيزان

العلامة الثانية لاختلال الميزان هى ضياع الحق . . أو كما يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم : إعجاب كل ذى رأى برأيه . . وإعجاب الناس بآرائهم هو بداية الخروج من الحق إلى هوى النفس . . وكل واحد يقول : هذا رأيى ولابد أن يتبع . . ويحاول بشتى الطرق أن يزين هذا الرأى ، ولو بالباطل . . وأن يجمع الأدلة عليه ، ولو كذبا . . فإذا رأى الحق فإنه ينسى أن الرجوع إلى الحق فضيلة . . ويرفض أن يهزم ، وأن يؤخذ بغير رأيه . . فكأن الناس قد وضعوا أنفسهم فوق الحق . . بينما الحق هو الذى كان يجب أن يسود

ولكن الدنيا كلها تتفنن فى الخداع ، ويصبح كل صاحب رأى يحاول أن يحقق غايته بأى طريق . . بالضلال والاخلال . . وهكذا يختل ميزان الدنيا لأنه مقام على الحق . . ويصبح الحق ضائعا لا صاحب له . . لأن كل صاحب رأى معتز برأيه ، بصرف النظر عن الحق . . وهذا ما نجده الآن فى الدنيا . . فالناس تحاول أن تفعل أشياء وتخلد أسماءها .

نأتى بعد ذلك إلى علامة أخرى من علامات اختلال الميزان . . وهى إعطاء الشىء لغير أهله . . والدنيا كلها قائمة . . والحياة كلها تقدمت بأن يعطى الشىء لأهله . . فتعطى قضايا العلم للعلماء . . وتعطى قضايا الاختراعات للباحثين والمخترعين . . ويعطى القضاء مثلا لمن هم قد درسوا قوانين الله وشرعه . . ولكن العقل البشرى عند اقتراب الساعة لا يعطى الشىء لأهله .

فإذا بدأنا بالقضية الكبرى ، وهى قضية خلق الحياة والكون . . فالله سبحانه وتعالى هو الذى خلق . . وهو الذى أخبرنا بأنه خلق . . ولم يخبرنا أحد ، ولا يجرؤ أحد أن يدعى أنه خلق الكون . . ومع ذلك يأتى بعض الناس ليقولوا : إن الكون خلق بالصدفة . . وأن هناك تفاعلات كذا وكذا هى التى فعلت كذا . . ونجد نظرية التطور تقول : إن الانسان أصله قرد . . مع أن الله سبحانه وتعالى هو الذى خلق الانسان ، وأخبرنا كيف خلقه .

ولكن فى هذه القضية الكونية الكبرى ينسب الشىء لغير أهله . . ويفترى الناس على الله ويغرهم ما كشف الله لهم من قوانين وأسرار فى الكون . . فيظنون أنهم قد أوجدوا هذه القوانين ، وأنهم قد صنعوها بقدرتهم ، وإنها تتصرف وفقا لارادتهم ، فتختل الموازين ، ويعبد الانسان نفسه . . فتأتى إرادة الله سبحانه وتعالى لتزيل هذا الزيف كله ويدعى الناس للحساب أمام الله . . فيرون أنهم كانوا عجزة لا يقدرون على شىء ، وكانوا خاضعين لا يملكون شيئا ، ولكن الله هو الذى أعطاهم من قدرته ، ومنحهم من ملكه ، فإذا بهم يقابلون ذلك بالكفر بدلا من شكره .

هذا هو المعنى الواسع لأن يعطى الشىء لغير أهله . . أى أن يحسب الانسان أنه الأصيل فى الكون ، وأن كل شىء خاضع له وينسى خالقه .

وكلما مر الزمن شهدنا ذلك يبرز على الساحة فى العالم . . فنجد من يقول : انتهى عصر الدين وبدأ عصر العلم . . كأنما الدين والعلم متعاندان . . بينما الدين هو دين الله ، والعلم هو علم الله . .

وكلاهما مثبت للايمان . . ونرى العالم كلما تقدمنا فى الزمن يحسب أنه قد استطاع أن يسيطر على الأرض بالعلم ، ويخضعها لارادته ، ويتحكم فيها . . بينما العلم لم يخلق شيئا . . وإنما استخدم المادة التى خلقها الله والعقل المسخر له من الله . . فى استخدام ماشاء الله من أسرار هذا الكون .

فالذى اخترع الصاروخ مثلا جاء بالمواد التى خلقها الله ، وأوجدها فى الأرض ليصنع منها جسد الصاروخ ووقوده . . فهو لم يخلق المادة التى صنع منها جسم الصاروخ . . وإنما جاء بها من المناجم التى أوجدها الله فى الأرض . . قد يكون قد طورها وقواها بمواد أخرى . . ولكنها كلها جاءت من خلق الله . . مما أودع الله سبحانه وتعالى فى كونه من نعم وكنوز . . وفى ذلك يقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ ٱلْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَٱزَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَآ أَنَّهُمْ قَٰدِرُونَ عَلَيْهَآ أَتَىٰهَآ أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَٰهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِٱلْأَمْسِ ۚ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْـَٔايَٰتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢٤﴾ ﴾

(الآية ٢٤ سورة يونس)

الشىء لغير أهله

فإذا أخذنا هذا الحديث بالمعنى الواسع ، وهو أن يعطى الشىء لغير أهله . . نجد أننا بدلا من أن نعطى ما فى الدنيا لله سبحانه

وتعالى الخالق والموجد . . نأتى لغير أهل هذا الأمر ، وهوالانسان ، فننسبه إليه لغرور التقدم العلمى . . والانسان غير أهل لذلك . . فهو لا يستطيع أن يخضع قانونا واحدا من قوانين هذا الكون لارادته . . ومع ذلك فهو يظن باطلا على غير حقيقة أنه قادر على هذا الكون . . وأنه هو الذى أخضع القوانين بالعلم والتكنولوجيا . . حينئذ يأتى أمر الله ليعلم الناس الحقيقة .

وإذا أخذنا هذا الحديث . . « يعطى الشىء لغير أهله » . . بأنه سيكون هناك حكام وولاة يحاولون الابقاء على حكمهم بألا يختاروا الناس لكفاءتهم أوعملهم أو خبرتهم . . ولكنهم يختارونهم من المخلصين لهم بغير علم . . ومن الذين يطيعونهم بالحق والباطل ، ويعطونهم ما هم ليسوا بأهل له . . وهو ما يعبر عنه فى العصر الحديث بأهل الثقة ، وأهل الخبرة . . هؤلاء الحكام وهم يعرفون من يصلح للعمل ، ولكنه متمسك بالحق فيبعدونه عنه . . ويضعون فيه أولئك الذين لا يفقهون شيئا . . وبهذا تنتفى الخبرة السليمة فى إدارة العمل ، ويصبح الذين يعلمون لا يفعلون شيئا ، والذين لا يعلمون هم الذين يديرون حركة الحياة فى الكون كله .

ومادامت المسألة أهل ثقة وأهل خبرة . . تكون حركة أشراف الناس على الحياة مختلة فيختل الكون كله . . ورسول الله صلى الله عليه وسلم ينبهنا إلى ذلك فى الحديث الشريف حين يقول : « من ولى من أمر المسلمين شيئا ، فولى رجلا ، وهو يجد من هو أصلح منه ، فقد خان الله ، وخان رسوله ، وخان جماعة المسلمين » .

ويقول رسول الله صلى الله عليه وسلم . . (إذا رأيتم الناس أماتوا

الصلاة ، وأضاعوا الأمانة ، وأكلوا الربا ، واستحلوا الكذب ، وباعوا الدين بالدنيا فهذه من علامات الساعة .

والصلاة هى الصلة بين العبد وربه . . وكل أحكام الدين ترفع ماعدا الصلاة ، لأنها الصلة بين العبد وربه . . فالحج لمن استطاع إليه سبيلا . . فمن لم يستطع ، لأنه كان فقيرا ، يسقط عنه الحج . . ومن لم يستطع لأنه مريض بمرض مزمن لا يشفى منه ، سقط الحج . . والزكاة تسقط عمن لا يملك إلا قوته وقوت عياله . . والصوم لمن كان فى تمام صحته ولم يكن مسافرا . .

ولكن الصلاة لا تسقط بالمرض ، ولا تسقط بالفقر ، ولا تسقط بالسفر ، فالانسان يصلى واقفا ، ويصلى قاعدا إذا كان لا يستطيع أن يقف ، ويصلى فى فراشه إذا كان لا يستطيع أن يغادر الفراش . . ويصلى حتى ولو لم يكن قادرا على أن يحرك يديه وقدميه . . فالصلاة هى أساس حياة المؤمن لا يتركها أبدا . . وقول رسول الله صلى الله عليه وسلم (أماتوا الصلاة) . . أى لم تعد موجودة فى حياتهم . . فالميت يخرج من الحياة الدنيا . . وكذلك الصلاة تخرج من حياة الناس فى آخر الزمان . . والميت يصبح نسيا منسيا . . مصداقا لقوله تعالى :

﴿ يَٰلَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَٰذَا وَكُنتُ نَسْيًا مَّنسِيًّا ﴿٢٣﴾ ﴾

(من الآية ٢٣ من سورة مريم)

وهكذا ننسى الصلاة فى آخر الزمان . . ويؤذن الله أكبر ، والناس لاهون فى أمور الدنيا . . فلا يقوم أحد إلى المسجد ليصلى . . أو يقوم

ليتوضأ ويصلى .. بل عندما يؤذن المؤذن للصلاة يكون كأنه ينادى على موتى فلا يجيبه أحد .

وأضاعوا الأمانة

وقول رسول الله صلى الله عليه وسلم (وأضاعوا الأمانة) .. معناها أنهم أضاعوا منهج الله ، لأن الأمانة هى المنهج الذى حمله الانسان ليؤديه فى الدنيا ، مصداقا لقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴿٧٢﴾ ﴾

(الآية ٧٢ من سورة الأحزاب)

فكأن الناس فى آخر الزمان يضيعون منهج الله .. وكيف يضيعونه ؟ .. إنه يكون فى أيديهم ولكنهم لا يعملون به .. وهكذا ضيعوا على أنفسهم ثواب المنهج الذى لو علموا به لحصلوا على خير الدنيا والآخرة .. فكأن الله سبحانه وتعالى قد أعطاهم شيئا ثمينا ، وهو منهج السماء ، وهو القرآن الكريم فأضاعوه .. أى وضعوه فى مكان بعيد عن حياتهم ولم يلتفتوا إليه .. ولم يحاولوا أن يبحثوا عما فيه من كنوز ومن علم .. هذه واحدة .

والثانية أنهم أهملوا الأخذ به .. فبدلا من أن يتبعوا التشريعات التى جاء بها الله ذهبوا ليقننوا لأنفسهم ، وكأنما قوانين البشر هى أعلى من قوانين الله .. ولذلك ترك الانسان المنهج الذى أعطاه الله إياه

وانطلق يشرع لنفسه . . وسمعنا عن القانون الرومانى ، والقانون الفرنسي ، والقانون الانجليزى إلى آخر هذه القوانين . . كل قانون منها يتبع هوى النفس . . وكل قانون منها وضع ليميز طبقة عن طبقة ، ويميز أفرادا عن أفراد .

ولذلك أعطى الله سبحانه وتعالى لخلقه القانون الذى فيه العدل بلا هوى . . والحق بلا غرض ، فأضاعوه وأخذوا يبحثون عن قوانين البشر . . يضعونها . . فإذا العيوب تظهر فيعدلون ويبدلون فيها . . حتى يصبح القانون غارقا فى التعديلات كالثوب المهلهل المرقع لا يصلح لشىء ، وأضاعوا الأمانة جعلوا الدين فى خدمة الدنيا . . بينما الدين هو السيد ، وكل ما فى الدنيا يجب أن يخدمه . . ففسروا دين الله بغير ما قاله . . وأصدروا الفتاوى ليحلوا ما حرم الله ، ويحرموا ما أحله خدمة لأمور دنياهم ، وتقربا منهم لذوى النفوذ . . فأضاعوا عدل الدين ، وأضاعوا حكمته ، وأضاعوا كل شىء يمكن أن يعطى الانسان الحياة الآمنة المستقرة . . إذا حدث هذا كله فاعلم أنه من علامات الساعة .

واستحلوا الكذب

أما قول رسول الله صلى الله عليه وسلم . . (واستحلوا الكذب) . . فمعنى ذلك أن الكذب قد أصبح حلالا يتعامل به كل الناس . . وأصبح مقبولا فى المجتمع لا ينفر منه ولا يستنكره أحد . . والكذب هو انفصال الكلام عن الواقع . . فأنت إذا قلت : محمد

عندى ولم يكن عندك فقد انفصل كلامك عن الواقع الحقيقى .. ولذلك يقال كذب .. واستحلال الكذب معناه أن القول قد انفصل عن الفعل فى حياة المجتمع .. فيصبح المجتمع كلامه شىء ، وفعله شىء آخر .. ويصبح الناس كلامهم غير أفعالهم .. فما يقوله الناس شىء وما يفعلونه شىء آخر تماما .

نجد إنسانا يحدثك عن الأمانة . فإذا ائتمنته خانك .. وإنسان يحدثك عن الذمة والشرف .. فإذا عاملته كان لا ذمة له ولا شرف عنده .. وإنسان يحدثك عن المال الحرام حديثا مستفيضا فإذا أتيحت له الفرصة مد يده إلى المال الحرام .. وفى هذه الحالة ينفصل واقع الحياة عن أولئك الذين يعيشون فيها .

والانسان لا يكذب إلا إذا كان يريد أن يخفى خطيئة .. فإذا رأى إنسان امرأة معك وسألك عمن معك .. فإن كانت زوجتك فإنك تقول زوجتى .. أما إذا كانت زوجة غيرك .. فإنك تحاول أن تخفى هذه الخطيئة بالكذب .. وإذا كنت تحصى مالا حلالا ، ودخل عليك إنسان ، وسألك عن هذا والمال تقول : هو مالى بلا تردد ولا خوف .. فإذا كان مالا حراما حاولت أن تكذب لتخفى هذه الخطيئة .

وهكذا نرى أن معنى أن يستحل الناس الكذب أن يكون المجتمع مليئا بالخطايا .. ولذلك يحاول الناس أن يكذبوا لتغطية خطاياهم .. فإذا رأيت مجتمعا يملؤه الكذب ، فاعلم أنه تملؤه الخطيئة .. وإذا رأيت مجتمعا يعيش بالصدق فاعلم أنه مجتمع خطاياه قليلة .. ومعنى قول رسول الله صلى الله عليه وسلم .. (واستحلوا

الكذب) . . أى أن مجتمعات آخر الزمان ستكون مليئة بالخطايا التى يخجل منها الناس فيكذبون .

وقول رسول الله صلى الله عليه وسلم . . (واستخفوا بالدماء) . . أى أن الناس أصبحوا يهدرون دم بعضهم البعض باستخفاف غريب . . ودم الانسان لا يهدر إلا بحقه . . ولكن فى آخر الزمان يستخف بالدماء ، فيقتل الأبرياء دون أن يفعلوا شيئا ، وتهدم الأماكن فوق رءوس النساء والأطفال دون ذنب فعلوه . . وهذا ما يحدث الآن . . فقد استخف الناس بالدماء . . فترى رجلا مثلا يدبر حادث نسف بسيارة ملغومة يقتل فيه العشرات من الأبرياء باستخفاف غريب ، دون أن يشعر بأى ذنب . . وكذلك خطف الرهائن وقتلهم . . ووضع المتفجرات فى الأماكن المزدحمة ، ونسف القطارات والسيارات . . وما يحدث فى الحروب من استخفاف بأرواح الأبرياء ، وقصف المدن بالقنابل والصواريخ . . كل هذا يحدث الآن باستخفاف غريب ، ولا ضمير يستيقظ ، ولا إنسان يثور على قتل الأبرياء بلا حساب . . وهذا هو الاستخفاف بالدماء .

ويقول رسول الله صلى الله عليه وسلم . . (أن يكون فاسق القوم كبيرهم) والمفروض أن الكبير ـ سنا كان أو مقاما ـ هو الذى يحافظ على الخلق الكريم ، وهو الذى ينهى وينهر كل من يخرج على السلوك القويم ، أو يرتكب عملا سيئا . . فإذا كان الفسق والفجور فى الكبير فمعناهما أن الفاحشة تعم الجميع ، لأن الكبير هو القدوة . . وهو المثل . .

عقـــوق الــوالـــدين

ومن علامات الساعة التى أنبأنا بها رسول الله صلى الله عليه وسلم نقص الكيل والميزان . . ومعناها أن يسود المجتمع أكل حقوق الناس . . فالكيل والميزان هنا معناهما حقوق الناس . أى أن حقوق الناس تضيع . . وأن يعق الولد أباه حتى أنه يصبح خيرا للأب أن يربى كلبا صغيرا من أن يربى ولده ، لأن الكلب يخلص لصاحبه . . أما الأبن فيكون غيظ أبيه وأمه .

وهكذا معناه انتشار عقوق الوالدين ، وألا يوقر الناس الكبير . . ولا يرحموا الصغير وأن يلبسوا جلود الضأن ، وقلوبهم كالذئاب . . أى أنهم يتظاهرون بالمسالمة ، بينما هم فى داخلهم متوحشون . . لا شفقة عندهم ولا رحمة ، وأن يتعالى الحفاة العراة ، رعاة الشاة فى البنيان . . أى يصبح المال فى يد من لا علم لهم . . يملكون مال الدنيا ، وليس عندهم علم لكى يحسنوا استثماره . . وأن يقتل الرجل أباه . . أى تنقطع صلة الأرحام بين الناس . . وأن يركن العلماء إلى الولاة . . أى يخضع العلماء أحكام الدين للدنيا ، يريدون بها مالا أو وظيفة ، فيحلون الحرام ويحرمون الحلال . . وأن يؤخذ المال بغير حقه . . فينتشر المال الحرام حتى تصبح الصفة الغالبة فى المجتمع هى أن يحصل الناس على المال حراما بدون عمل . . فتكثر السرقة والرشوة والنصب والاختلاس ، ويتحايل الناس بالمشروعات الوهمية ، ليحصلوا على الأموال بالباطل .

ومن علامات الساعة التى رواها رسول الله صلى الله عليه وسلم

أن تقطع الأرحام . . وأن يشتكى ذو القرابة لقرابته ، فلا يعود عليه ذلك بشىء رغم أنهم يستطيعون أن يفعلوا ، وأن يعبد المال فيعصى الناس الله فى سبيل الحصول على المال الحرام ، وأن تختلط الأمور بين الناس ، فلا يعرف ما هو الحرام وما هو الحلال . . وأن يظهر البغى والحسد والشح ، وأن يجهر الناس بالفحشاء كأن يرتكب رجل أو امرأة فاحشة ، ثم يأتى وسط أصدقائه ، ويجاهر بها وكأنه يتفاخر بمعصية الله . . وأن يأكل القوم بألسنتهم كما تأكل البقر . . أى يعيشون على النفاق والرياء والكذب ومديح الناس بالباطل ولا يعملون شيئا . . وأن يعز الله ثلاثا : درهما من حلال وعلما مستفادا وأخا فى الله . . أى يكون من العزيز والنادر أن يكسب الناس مالا حلالا . . أو يستفيدوا من علم يقال لهم فيتبعوه . . أو يحب الرجل رجلا فى الله ولله .

ومن علامات الساعة التى أنبأنا عنها رسول الله صلى الله عليه وسلم أن تنتشر الخرافات . . فيصدق الناس التنجيم وقراءة الطالع بالنجوم ، وأن يمر الرجل على المسجد فلا يدخل فى قلبه خشوع ولا يركع ركعتين . . وأن يكون السلطان والقوة للنساء فيحكمن الرجال . . ويطيع الرجال النساء فى كل الأمور ، وأن تكون قلوب المسلمين قلوب الأعاجم وألسنتهم ألسنة العرب . . أى أنهم يتكلمون باللغة العربية . . ولكن قلوبهم تهوى وتعشق كل ما هو أجنبى . . فحياة الأجانب الأعاجم هى التى تستهويهم . . وهى التى تعجبهم . . وأن تزخرف المساجد وتحلى المصاحف . . أى أن يكون الايمان ظاهريا فقط دون قلوب تخشع ، أو أفئدة تخضع . . فبدلا من

أن يعمر المسلمون المساجد بالصلاة يصنعون فيها الزخرفة ويحلونها بالنقوش .. وبدلا من أن يقرأ المسلمون القرآن .. يحلون المصاحف بماء الذهب .. أى أن القلوب تكون خاوية خالية من الايمان .

هذه هى بعض العلامات الصغرى التى تنبأ بها رسول الله صلى الله عليه وسلم بالنسبة لقيام الساعة .. وقد تحققت جميعا ومادامت قد تحققت فهى لا تختفى ، وتزيد ولا تنقص حتى تقوم الساعة .

نكون بذلك قد بينا بعض العلامات الصغرى لقيام الساعة ، ووصلنا بذلك إلى المشاهد فى يوم القيامة التى رواها لنا القرآن الكريم ، والتى ستحدث فى هذا اليوم العظيم ، وهذا هو موضوع الفصل القادم إن شاء الله .

□ □ □

أحاديث قدسية

يقول الله فى حديثه القدسى :

« لا يزالُ عبدى يتقرَّبُ إلى بالنّوافلِ حتى أحبَّهُ . فإذا أحببتُه كنتُ سمعَهُ الذى يسمعُ به ، وبصرَهُ الذى يبصرُ به ، ويدَّهُ التى يبطش بها .

ومَنْ ذكرنى فى سِرِّه ، ذكرتُه فى سِرى ، ومَنْ ذكرنى فى مَلأ ذكرتُه فى ملأ خيرٍ منه . ومن اتانى يَمْشي أتيتُه هَرْولةً » .

الفصل الرابع

يوم البعث



يوم البعث

عندما نبدأ الحديث عن مشاهد يوم القيامة ، فلابد أن نتعرض إلى ثلاث نقاط : أولاها معنى الموت . . وثانيتها نفخة الصور . . وثالثتها طريقة البعث . . فمع البعث تبدأ أحداث يوم القيامة . . ولكن يسبق هذا الموت . . والحديث عن الموت ، أو انتهاء الحياة حديث يمكن أن يلخص فى سطور قليلة . . فالموت كما قلنا خلق من خلق الله مصداقا لقوله تعالى :

﴿ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴾

(من الآية ٢ من سورة تبارك)

ولعلنا نلاحظ أن الحق سبحانه وتعالى قد قدم فى هذه الآية الموت على الحياة . . فقال سبحانه :

﴿ خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ ﴾

ولنا أن نتساءل : لماذا قدم الله سبحانه وتعالى الموت على الحياة . . فنجد أنه لسببين :

السبب الأول أنه يسبق الحياة . . فالله سبحانه وتعالى يقول :

﴿ كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَٰتًا فَأَحْيَٰكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٨﴾ ﴾ **(الآية ٢٨ من سورة البقرة)**

أى أن الموت يكون قبل الحياة . . ومن هنا فهو سابق للحياة . . والثانى أن الله سبحانه وتعالى يريد أن يلفتنا إلى الموت حتى إذا تذكرناه سارعنا إلى الخير والايمان والعمل الصالح . . ولكنه ليس فى حاجة

لأن يلفتنا إلى الحياة . . فدوافع الحياة متمكنة متأصلة فى النفس البشرية . . من منا إذا جاء أول الشهر ينسى أن يقبض مرتبه . . من منا إذا أحس بالجوع ينسى أن يأكل لعدة أيام . . من منا لا يحاول أن يحصل على أكبر حظ من الدنيا . . دوافع الحياة كثيرة وموضوعة فى النفس البشرية لتستطيع هذه النفس أن تؤدى مهمتها فى الكون ، وهى عمارة الأرض ، وبناء الحضارة . . ولكننا ، ونحن نتذكر الحياة فى ثانية ، ننسى دائما الموت . . وقد تمر سنوات دون أن نتذكر أننا سنموت ونلاقى الله . . بل إننا إذا ذكرنا إنسانا بذلك . . فإننا نحاول أن نبعد هذه الصورة . . صورة نهاية الحياة ، ونستعيذ منها .

إذن فنحن محتاجون دائما لأن يلفتنا الله سبحانه وتعالى إلى الحقيقة . . فيأتى ذكر الموت أولا ليلفتنا الله سبحانه وتعالى إليه حتى لا نحسب أننا أخذنا الحياة الدنيا اغتصابا واقتدارا ولن نخرج منها .

والموت هو انتهاء الارادة البشرية . . فمادمت حيا .. تستطيع أن تفعل كذا ولا تفعل كذا . . ويكون لك اختيار وبدائل . . ولكن متى جاء الموت انتهى هذا الاختيار تماما ولم يعد لك اختيار فيما سيفعل بك ، أو سيقع عليك من أحداث . . من لحظة الموت إلى يوم القيامة . . فالارادة البشرية انتهت مهمتها فى اختيارات الدنيا . . ومادامت انتهت مهمتها فهى الأخرى لم يعد لها وجود .

وهكذا تنتهى إرادتك البشرية . . وتنتقل إلى حياة البرزخ التى لا تملك فيها إرادة . . ثم يوم القيامة الذى لا تملك أيضا إرادة . . على أننا لابد أن نلتفت إلى قول الحق سبحانه وتعالى :

يـوم البعث

﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ ۗ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ۖ ﴾

(من الآية ١٨٥ من سورة ال عمران)

هل للموت مذاق وطعم يتذوقه الانسان ؟ . . هل له طعم مثل الطعام مثلا ؟ .

نقول إن الله سبحانه وتعالى يستخدم لفظ الذوق ، دون الاحساس الصارخ فى الأشياء الذى يحس بها كيانك كله ، فأنت مثلا ترى بعينيك ، وتسمع بأذنيك ، وتلمس بيديك وتشم بأنفك . . ولكن الذوق باللسان هو الشيء الذى يعود بالنفع على هيكل الجسم كله . . فيعطيك إحساسا باللذة وجمال الطعم . . ويعطى جسدك الطاقة التى يعيش بها . . يعطى الدم الغذاء الذى يحتاج إليه . . ويعطى المعدة ما تمتصه للجسم ويعطيك القدرة على الحركة .

فأنت إذا تناولت الطعام فإنك تعطى لجسدك كل شيء يحتاج إليه . . ولا يصل تأثير ذلك إلى جزء معين من الجسد ، بل يصل إلى أعضاء الجسد كله . . فإذا كان الانسان بدون طعام فإنه لا يقوى على الحركة ، ولا على التفكير ، ولا على الكلام . . ولا على الرؤية السليمة بالعينين .

وهكذا نرى أن أثر الذوق يصل إلى الجسد كله . . وفى ذلك يقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ وَذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ﴿٥٠﴾ ﴾

(من الآية ٥٠ من سورة الأنفال)

أى أن الكفار حين يعذبون فى النار يصل الحريق إلى كل خلية من أجسادهم ، كما يصل الطعام إلى كل خلية من خلايا الجسد فى الحياة . . والله سبحانه وتعالى حين يقول :

﴿ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ ﴿١١٢﴾ ﴾

(من الآية ١١٢ من سورة النحل)

أى أن الجوع تمكن منهم حتى ذاقته كل خلية فى الجسم . . أو أن الخوف ملكهم حتى مس كل خلية من أجسادهم . . فارتعدت أيديهم ولم تكن أقدامهم قادرة على حملهم . . ولم تقو ألسنتهم على النطق ولا عقولهم على التفكير من شدة الخوف .

حيـــاة .. ولا زمـــن

إذن فمعنى الذوق هو أن يحيط الشىء إحاطة كاملة بالانسان حتى تتأثر به كل خلية فى جسده . . وقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ ﴾

أراد الله أن يعطينا بها معنى الاحاطة . . فكأن كل خلية من الجسد سيسمها الموت . . شمولية الأثر يريد الله سبحانه وتعالى منها أن نلتفت إليها . . فلا يؤثر الموت على الحواس فقط . . وعلى العقل والقلب فقط . . ولكنه يشمل كل خلية فى جسد الانسان له تأثير عليها ، وهى تحس به ، وتتأثر به . . وهذا هو المعنى الذى قصده الحق سبحانه وتعالى فى قوله :

يـوم البعث

﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ ﴾

وبعد الموت تأتى حياة البرزخ بقوانينها التى تحدثنا عنها فى الجزء التاسع من معجزة القرآن الكريم .. فهى حياة لا زمن فيها .. وضربنا مثلا لذلك بأصحاب الكهف الذين أماتهم الله ثلاثمائة عام .. وعندما بعثوا لم يحسوا بالزمن :

﴿ قَالُواْ لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ ﴾

(الآية ١٩ من سورة الكهف)

وفى ذلك يقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ قَٰلَ كَمْ لَبِثْتُمْ فِى ٱلْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ ﴿١١٢﴾ ﴾

﴿ قَالُواْ لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَسْـَٔلِ ٱلْعَآدِّينَ ﴿١١٣﴾ ﴾

(الآيتان ١١٢ و ١١٣ من سورة المؤمنون)

وقوله تعالى :

﴿ يَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ وَنَحْشُرُ ٱلْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا ﴿١٠٢﴾ يَتَخَٰفَتُونَ بَيْنَهُمْ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا عَشْرًا ﴿١٠٣﴾ نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ إِذْ يَقُولُ أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا يَوْمًا ﴿١٠٤﴾ ﴾

(الآيات ١٠٢ و ١٠٣ و ١٠٤ من سوة طه)

وهكذا نرى أنه لا زمن فى حياة البرزخ ، وأن الذين يعيشون

فى البرزخ لا يحسون بالزمن . . وهذا ما شرحناه بالتفصيل فى الجزء التاسع من كتاب معجزة القرآن الكريم .

وجـــاءت الصـــاعقـــة

ثم ينفخ فى الصور ، مصداقا لقول الله سبحانه وتعالى :

﴿ وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ ﴿٦٨﴾ ﴾

(الآية ٦٨ من سورة الزمر)

فى هذه الآية هناك ملاحظتان : الملاحظة الأولى أن الله سبحانه وتعالى استثنى من الصاعقة التى ستحدث فى الآخرة . فكأن هناك من لن تصيبهم الصاعقة . . وقدم النظر فى هذه الآية على السمع ، وهذه هى المرة الوحيدة فى القرآن الكريم التى قدم فيها النظر على السمع . . فالله سبحانه وتعالى فى كل آيات القرآن كان يأتى بالسمع قبل البصر :

﴿ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ﴾

(من الآية ٧٨ من سورة النحل)

ولكن فى هذه الآية وحدها قدم النظر على السمع . . نقول : إنه بالنسبة للصاعقة التى ستصيب الانسان يوم القيامة ، فإن الله سبحانه وتعالى قد كتب على نفسه أن المخلوقات كلها تصيبها صعقة واحدة . ولذلك فكل من أصيبوا بالصاعقة من قبل لن يصابوا بالصاعقة

مرة أخرى . . لأن المخلوقات لا تجمع بين صعقتين . . موسى عليه السلام صعق فى الدنيا . . عندما طلب أن يرى الله جهرا . . مصداقا لقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا ﴾

(من الآية ١٤٣ من سورة الاعراف)

. . ولذلك فإن موسى لن يصاب بالصاعقة مرة ثانية . . وكذلك الجبل الذى تجلى له الله سبحانه وتعالى فأصيب بالصاعقة فكان دكا ، وكذلك أولئك النفر من قوم موسى الذين صعقوا قبل ذلك . . وقال عنهم القرآن الكريم :

﴿ وَإِذْ قُلْتُمْ يَٰمُوسَىٰ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴿٥٥﴾ ثُمَّ بَعَثْنَٰكُم مِّنۢ بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٥٦﴾ ﴾

(الآيتان ٥٥ و ٥٦ من سورة البقرة)

. . وهناك من أخذتهم الصاعقة من قوم عاد وثمود . . فهؤلاء أصابتهم الصاعقة . . ولذلك فإن كل من صعقوا لن تصيبهم الصاعقة مرة أخرى . . وهذا معنى قول الحق :

﴿ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ ﴾ (من الآية ٦٨ من سورة الزمر)

على أن ذلك لا يعنى أنه ليس لله سبحانه وتعالى طلاقة القدرة . . فالله له طلاقة قدرة يفعل ما يشاء ، متى شاء . . وطلاقة القدرة فى الكون هى التى صنعت المعجزات للأنبياء . . فمعجزات

الرسل خرقت نواميس الكون . . وأبطلت الأسباب . . ذلك أن أسباب الدنيا ليست قيدا على خالقها ، وهو الله سبحانه وتعالى . . ولذلك فإن الله سبحانه وتعالى جعل للنار خاصية الأحراق . . جعلها بردا وسلاما على إبراهيم . . وجعل البحر ينشق لموسى . . وطلاقة القدرة موجودة فى الكون منذ خلق إلى يوم القيامة . . فهى التى تعين المظلوم على الظالم . . وتنصر الضعيف على القوى .

لذلك عندما ترى إنسانا يصيح ربنا كبير . . أو ربنا موجود . . فاعلم أنه رأى طلاقة قدرة الله . . لأنه لو رأى الأسباب تعطى ، ما تعجب وما صاح . . ولكن لأن الأسباب تعطلت بعدل المسبب . . فإنه صاح ربنا كبير . . ربنا موجود .

إذن فقول الحق فيمن ستصيبهم الصاعقة إلا من شاء الله . . يعنى من إصابته الصاعقة من قبل . . ومن يشاء الله سبحانه وتعالى بطلاقة قدرته ألا تصيبه الصاعقة .

أما استخدام ينظرون فى قوله تعالى :

﴿ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ ﴿٦٨﴾ ﴾ (من الآية ٦٨ من سورة الزمر)

لأنها الحالة الوحيدة التى سنرى فيها قبل أن نسمع عند البعث من القبور . . يخرج الناس فيرون أولا الأرض وهى تتشقق والناس تخرج منها . . ولكن العكس يحدث فى كل الأحداث الأخرى . . فعندما يخرج الطفل من بطن أمه فإنه يظل عدة أيام لا يرى . . حتى إنك إذا قربت إصبعك من عينه لا تهتز جفناه . . ولكنك إذا أحدثت صوتا عاليا بجانب أذنه فى لحظة الولادة الأولى فإنه ينزعج . . ولذلك كانت

الأذن أولا فى آيات القرآن . . لكننا فى الآخرة نخرج من القبر فنرى أولا .

ما هــو البعــث ؟!

على أن مشاهد يوم القيامة التى ذكرها القرآن الكريم ترينا أننا سنقوم دفعة واحدة من الأرض . . سنبعث مرة واحدة . . سنقوم جميعا فى لحظة واحدة . . ولذلك قد سماها الله سبحانه وتعالى الحشر . . ما معنى الحشر ؟ معناه محاولة إدخال أشياء متعددة فى مكان ضيق لا يتسع لها . . بهذا يريد الله أن يقرب لنا صورة ما سيحدث ساعة البعث ليسميه الحشر . . لأن الناس الذين دفنوا فى الأرض من عهد آدم حتى يوم القيامة سيخرجون منها دفعة واحدة . . وبما أننا سنبعث من نفس الأرض التى دفنا فيها . . وسنبعث فى لحظة واحدة فسيكون الازدحام رهيبا ، والأرض تحمل كل المخلوقات من عهد آدم حتى يوم القيامة .

يخرج الناس من الأرض يوم البعث . . ويخرجون هُمْ هُمْ بكل صفاتهم وأوصافهم التى كانوا عليها فى الدنيا . . بعض الناس يتساءل : كيف يمكن ذلك ؟ . . كيف يمكن أن تخرجنا الأرض بذواتنا مرة أخرى بعد أن اختلطت المكونات .

ويقول هؤلاء الناس : لنفرض أن إنسانا مات ودفن فى مكان ما . . ثم زرعت شجرة تفاح فى هذا المكان فإنها ستتغذى على العناصر المكونة لجسد الميت المدفون تحتها . . فإذا طرحت هذه الشجرة ثمارا وجاء إنسان وأكل من هذه الثمار التى فيها عناصر من

إنسان آخر مدفون تحت هذه الشجرة ، واختلطت العناصر بعضها البعض . . فالعناصر التى فى جسد الانسان الذى أكل التفاحة هى من إنسان آخر . . ثم بعد ذلك أولاد هذا الرجل سيأخذون من عناصر الجسد الآخر . . وكذلك أولادهم وأحفادهم وتصبح العناصر مختلطة وفى أجساد متفرقة . . كيف يجمعها الله سبحانه وتعالى يوم القيامة فى جسد صاحبها مرة أخرى .

نقول لهؤلاء الذين يقولون هذا الكلام . . إن تفكيركم ينقصه الحكمة والعلم . . ذلك أن كل إنسان مخلوق من طين ، وقد انتهى العلم التجريبى أو العلم المعملى ، إلى أن جسد الانسان مكون من ستة عشر عنصرا هى عناصر الطين . . وأن أولها الكربون والأكسيجين . . فهى أعلاها نسبة وآخرها المنجنيز . . ذلك هو الجسد البشرى . . والجسد البشرى قوته من عناصر الأرض نفسها . . أو مما تنتجه الأرض،ولذلك فإن الانسان إذا أكل كثيرا ترهل جسده وزاد وزنه . . من نفس جنس المواد المصنوع منها الجسد . . أى أن الانسان إذا أكل بشراهة وزاد وزنه عشرين كيلو مثلا . . فإن هذه الزيادة لا تكون من مادة غريبة على الجسم . . ولكن من نفس مادة الجسم . . لأنها من الطين ، والانسان مخلوق من طين . . وإذا لم يأكل الانسان انخفض وزنه من نفس عناصر الجسم أيضا . . هذه الزيادة والوزن لا تتعلق بالتكوين الدقيق للانسان . . ولكنها مواد تفقد وتعود حسب الطعام الذى يتناوله كل منا .

إذا جئنا بعد ذلك إلى الانسان . . صحيح أننا جميعا مخلوقون من عناصر الأرض . . ولكن لكل منا خلقا مميزا . . أى أن نسب عناصر

تكوين كل منا تختلف عن الآخر . . فبعضنا يزيد فى جسمه الحديد ذرة أو ذرتان . . وبعضنا ينقص . . والبعض الآخر يزد فيه ذرة منجنيز والبعض الآخر ينقص . . ولذلك فإنك تجد فى كثير من الأحيان أنك حين تذهب للطبيب يقول لك : إن عندك نقصا فى الحديد أو فى البوتاسيوم . . ويعطيك الدواء الذى يكمل لك هذا النقص .

إذن فعناصر الأجسام كلها واحدة . . كل واحد فيه الستة عشر عنصرا الموجودة فى الأرض . . ولكن النسب تختلف بين كل واحد منا والآخر . . تكوين هذه النسبة هو الذى يكون كل شخص فينا . . وهذا التكوين هو من خلق الله سبحانه وتعالى .

ولذلك إذا أعدت النسب بنفس تكوينها عاد الشخص هُوَ هُوَ إلى الحياة . . وهذا ما لا يقدر عليه إلا الله . . واختلاف النسب يعطينا عددا لا نهائيا من الأشخاص الذين يتميز كل منهم عن الآخر . . إذن فاختلاف الشخصيات مبنى على اختلاف النسب ، وليس على عناصر التكوين التى نشترك فيها جميعا .

اختيـــارات .. بـلا حـــدود

ولكى نقرب ذلك إلى الأذهان ـ ولله المثل الأعلى ـ نقول : لنفرض أننا أردنا طلاء منزل ، وأتينا بستة عشر لونا أساسيا . . ولا يوجد فى الكون ستة عشر لونا أساسيا حسب علمنا . . ثم بدأنا نعد الطلاء الذى نريده . . وأتينا باللون الأبيض مثلا . . لو وضعنا فيه ذرة من اللون الأصفر لا ختلف . . ولو زودنا ذرة أخرى لا ختلف . . وإذا جئنا باللون الأحمر ووضعنا منه ذرة على الخليط لا ختلف . . وإذا

وضعنا ذرتين لا ختلف . . فإذا جئنا باللون الأبيض المخلوط بذرتين من اللون الأحمر . . ثم وضعنا فيه ذرة صفراء أوسوداء أو خضراء . . كل ذرة تعطى لونا مختلفا . . ولذلك فإن الذى يريد طلاء المنزل . . فإنه لابد أن يقوم بعمل خلطة البويات كلها معا . . ذلك لأنه لو قام بعمل خلطة كل حجرة على حدة لما استطاع أن يضبط الألوان أبدا ، لأنها عملية غاية فى الدقة . . توجد بدائل لا نهائية . . بل إن اللون إذا تركته يوما فى وعاء ، فإنك تأتى فى اليوم التالى لتجده قد تغير . . بل إنك حين تضع ساعة أو صورة أو نتيجة على الحائط وترفعها بعد عدة أيام . . تجد أن اللون فى مكانها قد اختلف عن بقية لون الحائط . . لأن إشعاعات الضوء تتفاعل مع اللون .

إذا كان ذلك يحدث بالنسبة لقدرات البشر المحدودة . . فماذا يمكن أن تفعل طلاقة قدرة الله مع خلقه . . إنها تؤلف نسبا لا نهائية . . لا يقف أمامها عدد مهما بلغ . . ذلك لأنه إذا كانت امكانياتنا الدنيوية نحن لها حدود . . وإذا كانت وسائل إدراكنا لها حدود . . فهذا نظره قوى ، وهذا ضعيف ، وهذا أضعف . . وهذا يسمع دبيب النملة ، وذلك لا يسمع دوى القنابل . . ولك أن تضع ما تشاء من درجات السمع بين دبيب النملة ودوى القنبلة . . إذن فالادراكات عند البشر تختلف . . واختلاف المدرك حجما ولونا وتكوينا . . هو الذى يعطى هذه الادراكات درجاتها من ضعف وقوة . . فتعطينا فى الدنيا اختيارات بلا حدود . . فكيف بإدراكات الخالق سبحانه وتعالى ؟

إذن فالذين يثيرون هذا الكلام يعتقدون أنه مادامت أجسادنا

مخلوقة من الأرض . . ومادامت الأرض من ستة عشر عنصرا فإن الأجساد ستختلط .

نقول لهم : لا . . إن اختلاف النسب يحفظ لهذه الأجساد خصوصيتها فإذا قال الله سبحانه وتعالى « كن » . . عادت هذه النسب بنفس الطريقة التى تكونت بها . . أو بنفس الخلق الذى تم أول مرة . . فيبعث الانسان يوم القيامة بجسده هو هو . . وبشخصيته هى هى ليحاسب . . ولا تأتى الأجساد ولا الشخصيات يوم القيامة وقد اختلطت ببعضها البعض . . بل كل منا مميز بتمييز لا يختلط مع أحد غيره . . وكل منا سيأتى بجسده هو ، وشخصيته هى يوم القيامة . . ويبعث هو هو ليحاسب . . فإما أن ينعم . . وإما أن يعذب .

تأتى ساعة البعث ويخرج الناس جميعا مرة واحدة ، ويبعثون من نفس الأرض التى دفنوا فيها ، مصداقا لقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ ﴿٢٥﴾ ﴾

(الآية ٢٥ من سورة الأعراف)

وبعد أن نخرج من هذه الأرض التى كنا نعيش عليها نساق إلى أرض الميعاد .

ذلك لأن هذه الأرض معدة للحياة الدنيا حتى لحظة البعث . . مدخر فيها أقوات البشر وأرزاقهم . . والحياة فيها تمضى بالأسباب ولكن المسبب والخالق قيوم على هذه الأسباب . . لا يترك كونه لحظة . . ولا يغفل عنه ، ولو برهة صغيرة . . وهو إذا شاء ، ومتى

شاء ، عطل الأسباب لتتدخل قدرة المسبب لتنصر مظلوما على ظالم . . أو تقتص لضعيف بغى عليه من قوى طغى بالأسباب ، وأفسد فى الكون .

أرض الأسباب هذه انتهت مهمتها . . ولذلك فهى تدمر . . والبشر يساقون إلى أرض الميعاد التى يتم عليها الحساب . . لأنه فى الحياة الآخرة تنتفى الأسباب ، ولا تصبح الأرض التى نعيش عليها صالحة ليوم الحساب ، وما بعد يوم الحساب .

إلى أرض الميعـــاد

إذا فالناس تخرج من أرض الأسباب إلى أرض الميعاد . . ولكن هل يخرجون هكذا ؟ . . كل منهم يذهب حيث يريد ، ويتجه إلى أى مكان يريده . . أم أن المسألة لها نظام محكم دقيق معد بحيث يكون كل شىء فى موضعه تماما . . إن الله سبحانه وتعالى يقول :

﴿ يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ وَبَرَزُوا۟ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ ﴿٤٨﴾ ﴾

(الآية ٤٨ من سورة إبراهيم)

فإذا كانت هذه الأرض ستتبدل بأرض جديدة وكذلك السموات . . فهل سنمضى كل يذهب باختياره إلى المكان الذى يريده وعلى هواه . . هذا يتأخر وهذا يتقدم . . وهذا يمينا ، وذلك يذهب يسارا . . وبعضنا يجرى إلى الخلف هروبا من هذا الموقف الرهيب . . وآخرون يزاحمون من الصفوف الخلفية ليصلوا إلى

الصفوف الأمامية .. هل سيحدث هذا ؟ .. لا .

لقد قلنا إن الموت معناه انتهاء إرادة الانسان .. انتهاء الاختيار .. فلا أحد يملك أن يختار لنفسه شيئا ، ولا أحد يملك أن يفعل أو لا يفعل حسب هواه .. فهذا الاختيار كان ممنوحا للبشر فى الحياة الدنيا كامتحان لهذا اليوم .. والآن انتهى الامتحان .. وأصبح كل إنسان يحمل أعماله التى أطاع فيها منهج الله ، والتى عصى فيها هذا المنهج .. وبدأت أولى خطوات الطريق إلى الحساب .. لم يعد أحد يملك من أمره شيئا .. تأمل دقة القرآن الكريم ، وهو يصف لنا كيف سننتقل من هذه الأرض التى نعيش عليها إلى أرض الميعاد .

من هـو السـائق ؟!

يقول الحق تبارك وتعالى :

﴿ وَجَآءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّعَهَا سَآئِقٌ وَشَهِيدٌ ﴿٢١﴾ ﴾

(الآية ٢١ من سورة ق)

.. تأمل قول الحق سبحانه وتعالى :

« كل نفس »

.. أى لن يفلت أحد .. كل قادم .. من عهد آدم إلى يوم القيامة .. ولكن ليس كل قادم باختياره ومشيئته .. بل كل نفس معها سائق .

ما هو السائق ؟ .. السائق فى اللغة هو الذى يسوق الغنم إلى المرعى ، وهو الحريص على أن تسير الغنم فى الطريق المرسوم إلى

مكان الماء أو العشب . . فلا تتجه يمينا أو يسارا . . بل هى ذاهبة إلى مكان محدد لها ، حيث يوجد العشب أو الماء . . والسائق يسوقها أمامه حتى يوصلها إلى هذا المكان . . ولماذا يسوقها أمامه ؟ . . لماذا لا يجرها خلفه ؟ . . أو لماذا لا يأتى بواحدة أو اثنتين من هذا القطيع فيسوقهما والكل يتبعه . . لأنه لو فعل ذلك ، وجعلها خلفه . . يمكن لواحدة منها أن تنحرف يمينا أو يسارا ، أو تبتعد عن الطريق ، دون أن يدرك هو ذلك . . ولكنها حين تكون أمامه . . إذا انحرفت أى واحدة منها يمينا أو يسارا . . فإنه يجرى ويعيدها إلى الطريق المرسوم .

وهذا التشبيه الذى أعطاه لنا القرآن الكريم جملة . . هو الذى سيحدث يوم القيامة تفصيلا . . فعندما ينفخ فى الصور ، ونخرج من القبور . . سيكون لكل واحد منا سائق ينتظره . . ذلك السائق من الملائكة الذين لا يعصون الله ما أمرهم ، ويفعلون ما يؤمرون . . وهذا الملك مكلف بأن يسوق الانسان من مكان الحشر على هذه الأرض التى نعيش فيها . . إلى مكانه المحدد له فى أرض الميعاد . . حيث سيتم الحساب . . وهذا الملك يكون خلف الانسان . . تماما كما يكون سائق الأغنام خلفها . . والانسان لا يغيب عن الملك المكلف به ولو لحظة . . ولو برهة . . بل يسوقه الملك وهو أمامه حتى مكانه فى أرض الميعاد . . ويكون حريصا عليه لا يستطيع الانسان أن ينحرف يمينا أو يسارا . فإذا انحرف قام الملك بتصحيح مساره .

ولكن الحق سبحانه وتعالى يقول :

« وجاءت كل نفس معها سائق وشهيد »

أى ليس معها فقط سائق يوصلها إلى المكان المحدد لها فى أرض

الميعاد. بل معها أيضا الشهيد ، وهو أعمالها . . شريط حياتها . . ما فعلته فى الدنيا لحظة لحظة . . حتى إن الحق سبحانه وتعالى يعطينا لمحة عن دقة الحساب .

يقول :

﴿ أَحْصَـٰهُ ٱللَّهُ وَنَسُوهُ ﴾

(من الآية ٦ من سورة المجادلة)

ويقول الله سبحانه وتعالى :

﴿ وَوُضِعَ ٱلْكِتَـٰبُ فَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَـٰوَيْلَتَنَا مَالِ هَـٰذَا ٱلْكِتَـٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا وَوَجَدُواْ مَا عَمِلُواْ حَاضِرًا وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا (٤٩) ﴾

(الآية ٤٩ من سورة الكهف)

أى أن هذا الكتاب الشاهد على الانسان . . الشهيد عليه . . لا يترك عملا صغيرا بسيطا إلا أحصاه . . فإذا كان لا يترك صغيرة ، فإنه من باب أولى ألا يترك كبيرة . . على أننا سنتحدث بالتفصيل فى الفصول القادمة إن شاء الله عن الحساب وعن الميزان . . وعما سيدور لحظة الحساب .

أحـــوال كثـيــرة

كيف سيكون الناس . . أحوال كثيرة . . ومشاهد كثيرة مختلفة أعطاها لنا القرآن الكريم . . ولا نستطيع أن نتعرض لها كلها فى هذا

الجزء من الكتاب .. ولكن موعدنا إن شاء الله فى أكثر من كتاب قادم .

انظر إلى قوله سبحانه وتعالى :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمْۚ إِنَّ زَلْزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَىْءٌ عَظِيمٌ ۝١ يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّآ أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَٰرَىٰ وَمَا هُم بِسُكَٰرَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ ٱللَّهِ شَدِيدٌ ۝٢ ﴾

(الآيتان ١ و ٢ من سورة الحج)

هذا تصوير دقيق للحالة التى سيكون عليها الناس كل الناس يوم البعث وقبل الحساب .. وهم يساقون من الأرض التى نعيش عليها وبعثنا منها إلى أرض الميعاد .. عقولهم من هول الموقف ستكون ضائعة .. فالأم التى هى فى الحياة الدنيا أحرص الناس على ابنها ، تتابعه أينما كان .. وتلحظه أينما وجد ، وبخاصة إذا كان رضيعا صغيرا .. هذه الأم ستذهل عن ابنها .. يكون أمامها فلا تراه .. ويناديها فلا تجيبه .. ويقترب منها فلا تحس به .. ذهول تام من هول الموقف .

فالناس فى يوم الحساب .. كل واحد منهم مشغول بنفسه .. يفكر فى ذاته .. ولا يدور فى فكره أى شىء آخر .. إنه يريد أن ينجو من هذا الهول العظيم .. يريد أن يطمئن إلى مصيره . وقد أصبحت القيامة حقيقة واقعة أمامه .. يراها بعينيه .. ويتابع أحداثها بنفسه بعد أن كانت غيبا عنه .. اللحظة التى يفيق فيها

الانسان . . ويعرف أن يوم القيامة قد جاء . . وأن ساعة الحشر قد بدأت . . يذهب عن عقله كل ما كان فيه . . ولا يفكر إلا فى نفسه . . إنه يوم كما وصفه الله سبحانه وتعالى :

﴿ يَجْعَلُ ٱلْوِلْدَٰنَ شِيبًا ﴿١٧﴾ ﴾

(من الآية ١٧ من سورة المزمل)

وقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا ﴾

. . أى أن المرأة التى تعتز فى الحياة الدنيا بجنينها . . تتخلص منه . . فهى لا يشغلها إلا نفسها . . وعندما يساق الناس إلى أرض الميعاد لا يمشون بخطى ثابتة . . لا يكونون ثابتين فى مشيهم وفى نقدمهم . . بل من الرعب الذى يجتاح القلوب يترنحون يمينا ويسارا كالسكارى . . حتى إنك إذا نظرت إليهم تعتقد أنهم قد فقدوا اتزانهم من الخمر . . ولكنهم حقيقة لم يتناولوا قطرة واحدة من الخمر . . ولكن هول الموقف الذى هم فيه ، وشدة عذاب الله الذى يخشون أن يصيبهم . . يجعلهم كالسكارى . . لا يستطيعون أن يحفظوا توازنهم ، ويترنحون فى مشيتهم .

الفــرار .. إلى أين ؟

ويزيد الصورة وضوحا قول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ يَوْمَ يَفِرُّ ٱلْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ﴿٣٤﴾ وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ ﴿٣٥﴾ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَبَنِيهِ ﴿٣٦﴾

﴿لِكُلِّ امْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ ﴿٣٧﴾﴾

(الآيات ٣٤ ، ٣٥ ، ٣٦ ، ٣٧ من سورة عبس)

إذا قرأت قول الحق سبحانه وتعالى هذا . . فإنك تعرف أنه سيكون هناك تناد بين الناس فى هذا الموقف العظيم هذا ينادى هذا بحكم . قرابة الدنيا وبحكم الصلات التى كانت بينهم فى حياتهم قبل الموت . . ولكن الأنساب هنا تختفى . . فلا يصبح كل واحد ملتفتا إلى تحية أو سلام أو لقاء . . رغم أنهم قد افترقوا لفترة طويلة . . كل واحد منهم يقول نفسى نفسى . . فإذا ناداه أو حاول أن يحتمى به مثلا أحد من أقاربه فإنه يتركه ولا يرد عليه . . بل يفر منه . . فإذا ظن الابن مثلا أنه يمكن أن يستنجد بأبيه الصالح فى هذا اليوم . . فإن هذا الأب لن يلتفت إليه ولن يستمع إلى كلامه . . ولن تشفع القرابة بين الاثنين . . لأن القرابة والألفة والأنساب تنفع فى الحياة الدنيا . . فيتجه الإنسان إلى أبيه أو أبنائه لينصروه فى ساعة الشدة ، ويقفوا معه فى ساعات العسرة . . وهم فى دنيا الأسباب يفعلون ذلك .

. . ولكن فى هذا اليوم . . كل واحد منهم مشغول بنفسه عن الآخرين . . يريد أن يهرب من أولئك الذين قد يصيبهم العذاب من الله . . لا يريد أن يتعلق به أحد . . ولا أن يحمل من أوزار أحد . . بل يبتعد قدر الامكان عن الناس كل الناس . . متمنيا أن ينجيه الله من العذاب .

وانتهى التــوازن

وهكذا يساق الناس إلى أرض الميّعاد ، وهم يترنحون من هول الموقف . . مشيتهم غير متزنة . . وخطواتهم غير ثابتة . . وكل من له عمل صالح يريد أن يهرب ممن لهم أعمال سوء . . ينادونه فلا يرد عليهم . . ويستنجدون به فلا ينجدهم . . ويظنون أن قرابته لهم أو صداقته لهم ستشفع لهم في ذلك اليوم . . ولكنه لا يلتفت إليهم . . لقد كانت هناك مظنة أنه سيعاونهم . . وترى أولئك الذين تجمعوا على حب الدنيا . . وتجمعوا على معصية الله . . يفرون من بعضهم البعض وهم أعداء ألداء . . صداقتهم فى الدنيا قد تلاشت تماما . . وكيف لا وكل منهم قد ساعد الآخر على أن يكون من أهل النار . . كل الناس فى هذا الموقف أعداء إلا المتقين . . لماذا لا يكون المتقون أعداء لبعضهم البعض فى ذلك اليوم . . لأن المتقين كانوا يتعاونون على الخير . . إذا رأى واحد منهم زميله يمشى فى الخير ، وطاعةالله . . يقول له عليك أن تكثر . . وإذا رأى أحدهم صديقه يمشى فى طريق الشر والمعصية يقف أمامه وينصحه حتى يعود إلى طريق الخير .

لقد كان المتقون يتعاونون على الخير فوقوا أنفسهم عذاب النار . . كل واحد منهم نصح الآخر . . والنصيحة كانت نافعة لينجو من العذاب فى هذا اليوم العظيم . . وفى ذلك يقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍۭ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٦٧﴾ ﴾

(الآية ٦٧ من سورة الزخرف)

وهكذا تظهر الصورة الأولى ليوم البعث . . المؤمنون فى هذا اليوم لهم نور يمشون به فى وسط ظلمات هذا اليوم العظيم . . والكافرون يحاولون أن يتقربوا من المؤمنين بأن ينادوا عليهم . . أو يطلبوا منهم أن يشفعوا لهم ، أو يكونوا لهم عونا . . ولكن هذا كله لا يفيد . . لقد تقطعت الأسباب ، وأصبح كل إنسان مشغولا بنفسه .

وتكتمل الصورة فى قول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ يَوْمَ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱنظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ قِيلَ ٱرْجِعُوا۟ وَرَآءَكُمْ فَٱلْتَمِسُوا۟ نُورًا فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُۥ بَابٌۢ بَاطِنُهُۥ فِيهِ ٱلرَّحْمَةُ وَظَٰهِرُهُۥ مِن قِبَلِهِ ٱلْعَذَابُ ﴿١٣﴾ ﴾

(الآية ١٣ من سورة الحديد)

. . وفى هذه الآية الكريمة يعطينا الحق سبحانه وتعالى صورة أخرى . . ففى يوم الحشر والناس فى طريقهم إلى أرض الميعاد . . من كثرة عدد الناس وشدة الزحام تسوء الظلمة . . فلا يرى الناس ما أمامهم . . الله سبحانه وتعالى يضىء للمؤمنين نورا يمشون على هداه .

وحين يرى المنافقون ذلك النور . . يحاولون أن يقتربوا من المؤمنين ليستعينوا بهذا النور على السير ، دون التخبط الذى يفرضه الظلام . . حينئذ يقال لهم ارجعوا فيرجعون بعيدا عن المؤمنين . . ثم

يكون بينهم سور أو ما يشبه السور أو حاجز . . هذا الحاجز من ناحية المؤمنين فيه رحمة الله سبحانه وتعالى بما عملوا من صالح الأعمال . . فيحسون بالرحمة تحيط بهم من كل مكان . . بينما من الناحية الأخرى . . ناحية المنافقين والمنافقات . . يكون هذا السور محاطا بعذاب الله ، حيث يحسون بالعذاب يحيط بهم . . وهكذا يمشى الاثنان . . المؤمن تحيط به رحمة الله ونوره . . والكافر والمنافق يحيط به عذاب الله . . وحينئذ يعرف الكفار والمنافقون الفرق ، ويحسون بأن العذاب يحيطهم . . بينما الرحمة تحيط بالمؤمنين .

﴿ يُنَادُونَهُمْ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ قَالُوا۟ بَلَىٰ وَلَٰكِنَّكُمْ فَتَنتُمْ أَنفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَٱرْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ ٱلْأَمَانِىُّ حَتَّىٰ جَآءَ أَمْرُ ٱللَّهِ وَغَرَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ ﴿١٤﴾ ﴾

(الآية ١٤ من سورة الحديد)

حينئذ عندما يحس الكفار والمنافقون بالفارق الكبير بين العذاب الذى يحيط بهم . . والرحمة التى تحيط بالمؤمنين . . ينادى الكفار والمنافقون المؤمنين : ألم نكن معكم فى الحياة الدنيا . . ألم نعش معا فى وقت واحد .

فيرد عليهم المؤمنون . . نعم لقد عشنا فى وقت واحد . . ولكنكم أيها الكافرون والمنافقون فتنتم أنفسكم بما تقدمه الدنيا من نعم زائفة . . وكنتم تتربصون بعباد الله المؤمنين . . لتؤذوهم وتدبروا لهم الشر . . ودخلت فى أنفسكم الريبة من أنكم ملاقو الله . . فظننتم أنكم لن تلاقوه . . وأنكم ستفلتون من هذا اليوم . . وجاءت شياطين الانس والجن لتقدم لكم الأمانى الزائفة . . عما ستحققونه فى

الدنيا ، فأصابكم الغرور بهذه الأمانى . . وتكبرتم وتجبرتم حتى جاء أجلكم ، وجاء أمر الله ، وجاء يوم الحساب . . فوجدتم أن ماوعدكم الله حق . . وأن غرور الشيطان باطل . . فاليوم لا ينفعكم شىء ، ولا ينجيكم من عذاب الله أحد .

تلك هى بعض المشاهد التى ستحدث يوم القيامة . . والناس يساقون إلى الحساب . . على أن هناك مشاهد أكثر ساعة يوضع الميزان ويحاسب الناس . . يومها يفضح الله الكافرين أمام كل خلقه . . ويحدث حوار كبير يشهده الخلق جميعا .

ولكن قبل أن نتعرض لهذه المشاهد . . لابد أن نتحدث عن معنى الميزان الذى سيحاسب الناس على أساسه فى الآخرة . . كيف تزيد الحسنات على السيئات . . أو كيف تزيد السيئات على الحسنات . . وكيف يحمل الناس أوزارهم ، أو ذنوبهم ، يوم القيامة .

وهذا هو موضوع الفصل القادم إن شاء الله .

■ ■ ■

الفَصْلُ الخَامِسُ

المِيزانُ

يوم الحشر يكون للناس أحوال مختلفة . . فلكل واحد منهم درجة من الدرجات . . الله سبحانه وتعالى يعرض لنا عددا من هذه المواقف فى القرآن الكريم . . ليريناكيف ستكون أحوال العباد المختلفة . . فلا المؤمنون على درجة واحدة ، ولا الكافرون على درجة واحدة . . ولكن لكل منا درجة . . ولكل منا حال من الأحوال . . هناك الذين كذبوا على الله . . وهناك الذين أشركوا بالله . . وهناك الذين عبدوا غير الله . . وهناك الذين أضلوا الناس . . وهناك صور عديدة ومتعددة . . كل فى صورة . . كل فى شأن .

هذا يريد أن يفر . . وهذا يتمنى أن يكون ترابا . . وهذا يريد أن يعود ليعمل صالحا ولو عاد لأفسد . . والناس حين تساق إلى أرض الميعاد . . يعطينا الله لأحوالها صورا مختلفة فى القرآن الكريم . . لأن الناس فى هذا اليوم العظيم لا يمكن أن يكونوا فى حالة واحدة . . ولكنهم فى أحوال متعددة . . وفى أول يوم الحشر هم فى حال . . وفى آخره هم فى حال . . لقطات كثيرة . . وكل واحد من الناس له حالة تناسب عمله . . له حال مع الله سبحانه وتعالى يناسب ما قدمه فى الدنيا . . فكل نفس بشرية لها عمل . . خيرا كان أو شرا . . فهو متفاوت . . الخير متفاوت والشر متفاوت .

ولنستعرض معا بعض هذه الصور التى ستحدث يوم القيامة . . هناك وجوه ستكون سوداء . . ووجوه ستكون بيضاء ، مصداقا لقوله :

﴿ يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ ﴾ (الآية ١٠٦ من آل عمران)

.. هل البياض أو السواد يتعلق باللون .. أم يتعلق بالحالة ؟

إنك فى كثير من الأحيان ترى إنسانا إذا أصابه هم ، وبلغ حالةاليأس يقول لك : لقد اسودت الدنيا فى وجهى .. هل الدنيا اسودت حقا وأصبح لونها أسود .. أم أن الدنيا كما هى ؟ ولكن ما ينتظر هذا الانسان من الهم والغم قد جعل الدنيا تبدو سوداء فى نظره ، بحيث لا يرى فيها أملا ، ولا يرى شعاع النور .

وهناك إنسان آخر ترى وجهه فتقول : إن وجهه أسود كأن غضب الله نزل عليه .. مع أن لونه فى الحقيقة .. لون وجهه يكون أبيض ، وليس أسود .. ولكنك تحس من الهم الذى يركبه والآثام التى يحملها أن وجهه أسود حالك السواد .

وكم من إنسان يكون وجهه أسود اللون فعلا وتراه مشرقا بالايمان متلألئا بالنور .. تستبشر به وتقول إن وجهه مشرق .

إذن فاللون هنا ليس هو المحل .. ولا يستطيع إنسان أن يقول : إن الله سبحانه وتعالى قد مدح الوجوه البيضاء فى الدنيا ، وذم الوجوه السوداء ، وشبه بهم الكافرين بأن وجوههم سوداء .

نقول لك لا .. إن عدل الله يأبى هذا .. ولا فرق بين عباد الله جميعا .. بل إن أهل جهنم فى الآخرة قد يكون معظمهم ممن يحملون وجوها بيضاء فى الدنيا وأعمالهم يملؤها السوء .

إذن فالسواد هنا معناه .. أنك إذا نظرت لهذه الوجوه بغض النظر عن لونها ، فإنك ترى سحاب السواد يحيط بها .. تراها وقد غاب عنها الاشراق .. تبدو ذميمة كالحة تحس أن كل ما حولها أسود .. فعملها أسود .. وحسابها أسود .. ومصيرها أسود .. ولا أمل لها

ولا فيها .

موكب الحشر يمضى ، وهم يومئذ على صور مختلفة . . إنهم يمشون جماعات . . المؤمنون جماعات ، والكافرون جماعات . . وكل جماعة فى شأن . . جماعة من أصحاب الوجوه السوداء يقولون :

﴿ يَقُولُ يَٰلَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي ﴿٢٤﴾ ﴾

(من الآية ٢٤ من سورة الفجر)

قد ملأهم الندم وأحسوا بعظم ما اقترفوا . . وجماعة أخرى من أصحاب الوجوه السوداء هم الذين كذبوا على الله :

﴿ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ تَرَى الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى اللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ ﴾

(من الآية ٦٠ من سورة الزمر)

﴿ كَأَنَّمَا أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطَعًا مِّنَ اللَّيْلِ ﴾

(من الآية ٢٧ من سورة يونس)

وجماعة يتمنون أن تسوى بهم الأرض :

﴿ يَوْمَئِذٍ يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَعَصَوُا الرَّسُولَ لَوْ تُسَوَّىٰ بِهِمُ الْأَرْضُ ﴾

(من الآية ٤٢ من سورة النساء)

وهناك صور عديدة فى القرآن الكريم سنعرض لها فى الفصول القادمة بالتفصيل . . تبين أحوال الخلق جميعا يوم القيامة . . خلق يحملون أوزارهم . . والوزر هو المعصية والفسق وكل ما يغضب الله . . وخلق يحملون أوزارهم وأوزارا مع أوزارهم . . أى أنهم لا يحملون فقط خطاياهم . . . بل هم يحملون أيضا خطايا

أخرى .. كيف يمكن أن يحدث ذلك مع أن الله سبحانه وتعالى قال في كتابه العزيز :

﴿ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ﴾

(الآية ١٨ من سورة فاطر)

.. أى أن كل واحد يحمل ذنبه فقط وما اقترفه .. ولا يحمل إنسان ذنب إنسان آخر .. وضرب الله لنا سبحانه وتعالى أمثلة فى القرآن الكريم توضح لنا ذلك .. وهذه الأمثلة فى قمة الايمان .. ففرعون مثلا كان من أشد العصاة لله .. نصب نفسه إلها فى الأرض ليعبده الناس .. وجاءه موسى بآيات كثيرة ، فرفض أن يؤمن .. بل استمر فى ضلاله وفى ادعائه الألوهية .. حتى أن الله سبحانه وتعالى من كثرة ذنوب فرعون وعصيانه لله وعده بأشد العذاب .. فقال الحق سبحانه وتعالى :

﴿ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدْخِلُوٓاْ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ ﴿٤٦﴾ ﴾

(من الآية ٤٦ من سورة غافر)

من يحمل الوزر

فرعون هذا الذى هو من أكفر أهل الأرض .. كانت له امرأة صالحة مؤمنة .. ومن شدة صلاحها وإيمانها ذكرت فى القرآن الكريم :

﴿ وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱمْرَأَتَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ٱبْنِ لِى عِندَكَ بَيْتًا فِى ٱلْجَنَّةِ وَنَجِّنِى مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِۦ وَنَجِّنِى مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١١﴾ ﴾

(الآية ١١ من سورة التحريم)

وهكذا نرى أن امرأة فرعون وقد عاشت فى قمة الاثم فى عصرها فى قصر فرعون . . إلا أنها أخلصت لله سبحانه وتعالى ، وطلبت منه النجاة من فرعون وعمله . . ومن القوم الظالمين المحيطين به . . فجاءت فى الآخرة ، ومصيرها الجنة ، ولم يحملها الله من أوزار فرعون شيئا .

وتنتقل من قمة الايمان إلى قمة المعصية . . امرأة نوح وهو نبى وامرأة لوط وهو نبى . . تأمل قول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱمْرَأَتَ نُوحٍ وَٱمْرَأَتَ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَٰلِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا وَقِيلَ ٱدْخُلَا ٱلنَّارَ مَعَ ٱلدَّٰخِلِينَ ﴿١٠﴾ ﴾

(الآية ١٠ من سورة التحريم)

. . هذه قصة امرأتين كانتا فى بيتى نبوة . . ولكنهما كفرتا بالله ، وارتكبتا الآثام ، فكان مصيرهما إلى النار . . ولم يشفع لهما أنهما كانتا زوجتى نبيين . . لأن أهل الأنبياء هم المؤمنون الذين آمنوا بهم

وصدقوا بالرسالة وعملوا بها .

فإذا انتقلنا بعد ذلك إلى ابن نوح ، وقد رفض أن يؤمن ، وأصر على الكفر ، فلم يغن عنه أنه ابن رسول ونبى . . وعندما أراد نوح أن يستغفر الله لابنه وقال :

﴿ رَبِّ إِنَّ ٱبْنِي مِنْ أَهْلِي ﴾ (من الآية ٤٥ من سورة هود)

. . رد الله سبحانه وتعالى عليه :

﴿ إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ ۖ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيْرُ صَٰلِحٍ ۖ ﴾

(الآية ٤٦ من سورة هود)

وإبراهيم حين أراد أن يشفع لعمه آزر :

﴿ وَمَا كَانَ ٱسْتِغْفَارُ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَآ إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥٓ أَنَّهُۥ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ ۚ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَأَوَّٰهٌ حَلِيمٌ ﴿١١٤﴾ ﴾

(الآية ١١٤ من سورة التوبة)

وهكذا نرى أن الحق سبحانه وتعالى قد أعطانا أمثلة فى القرآن الكريم تؤكد لنا أن الانسان لا يحمل يوم القيامة إلا ما ارتكب من أوزار أو من معاص . . وأن كل إنسان يحاسب عن عمله . . وأن أى نفس لا تحمل إثم أو ذنب أو عقوبة ذنب اقترفته نفس أخرى . . فكيف يقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ لِيَحْمِلُوٓا۟ أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۙ وَمِنْ أَوْزَارِ ٱلَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ ۗ ﴾ (من الآية ٢٥ من سورة النحل)

نقول إن الوزر الذى يحمله هو من عمله .. والوزر الذى يحمله مع أوزاره هو من عمله أيضا .. فالانسان حين يكون ضالا كافرا أو عاصيا ، فإنه يحمل وزره يوم القيامة .. فإذا كان مضلا .. أى لا يكتفى هو بالمعصية بل يزينها لغيره .. فيدفع الناس إلى شرب الخمر مثلا .. ويغريهم بالزنا .. ويزين لهم شهادة الزور .. فإنه فى هذه الحالة يحمل من أوزار هؤلاء الناس فوق وزره .

فكل إنسان أغراه ذلك المضل بشرب الخمر .. كلما تناول كأسا من الخمر عليه إثم .. وعلى الذى زين له ذلك إثم .. وكل إنسان شجع امرأة أو رجلا على الزنا .. كلما زنا هذا الرجل أو هذه المرأة عليها إثم .. وعلى الذى زينه لها إثم .

وفى ذلك يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من استن سنة حسنة فله أجرها وأجر من عمل بها إلى يوم القيامة . ومن استن سنة سيئة فعليه إثمها وإثم من عمل بها إلى يوم القيامة » .. ويأتى القرآن الكريم ليوضح لنا الصورة تماما فى قوله تعالى :

﴿ لِيَحْمِلُوٓاْ أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ ٱلَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ ﴾

(من الآية ٢٥ من سورة النحل)

.. وهكذا نعرف كيف سيحمل بعض الناس أوزارهم .. وكيف سيحمل آخرون أوزارا مع أوزارهم .

كيف يحملون أوزارهم ..؟

على أن السؤال هنا . . هو الصورة التى سيتم عليها ذلك . . هل سيحمل الانسان فوق ظهره عمارة أو عدة عمارات بناها بمال حرام ؟ . . وهل من الممكن أن تكون الصورة هكذا ؟ . . أم أن الناس سيحملون كتابا فيه أعمالهم . . وكلما كانت هذه الأعمال سيئة كان الحمل على ظهورهم ثقيلا ينتشرون به . . لا يستطيعون المشى ، وأحيانا يضطرون أن يزحفوا على بطونهم ، أو على ركبهم من ثقل ما يحملون .

الصورة هنا فى غيب الله سبحانه وتعالى . . ولكن من المؤكد أنهم سيشعرون بثقل عظيم على ظهورهم . . ثقل يجعل هذه الظهور تئن مما تحمل . . تجعل صاحبها ينقل قدميه بصعوبة بالغة . . ويبذل جهدا كبيرا فى أن يخطو خطوة واحدة . .

وهنا يتلفت يمينا ويسارا . . يبحث عمن يساعده فى هذا الحمل الرهيب فلا يجد أحدا . . الكل يهرب منه . . والله سبحانه وتعالى يكمل لنا الصورة فيقول سبحانه :

﴿ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ وَإِن تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَىٰ حِمْلِهَا لَا يُحْمَلْ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰٓ ﴾ **(من الآية ١٨ من سورة فاطر)**

النفس العاصية والكافرة التى تحمل هذه الأثقال الرهيبة ستبحث يمينا ويسارا . . تحاول أن تستنجد بأحد . . وأول من يلجأ إليه الانسان هم أقاربه . . فتحاول هذه النفس أن تستنجد بأولادها وإخوتها . . ولكنهم جميعا يهربون . . ولا يحمل أحد من هذا الحمل

شيئا .. فيظل الحمل الرهيب يئن منه ظهر هذه النفس .. وهى تحمله وتمضى به حتى مكانها فى يوم القيامة .

كل هذا قبل الحساب

كل هذا وغيره يتم قبل الحساب .. بل إن هناك حوارا يجرى بين الله سبحانه وتعالى وأولئك الذين لم يستجيبوا لمنهج الله ولا لدعوته .. فيجمع الله المتخذين له ـ تبارك وتعالى ـ أندادا ، وذلك المتخذ ندا .. ويواجههم حتى تكون الفضيحة تامة وعامة بين عابد عبد باطلا .. وبين معبود مرة لم يطلب من عابده أن يعبده ، ومرة طلب منه .. فالذين يعبدون من دون الله شركاء .. منهم من عبد الملائكة .. ومنهم من عبد رسولا وجعله إلها .. ومنهم من عبد صنما .. ومنهم من عبد شمسا أو قمرا أو جنا .. إذن فالمعبودون متعددون ، والعابدون متعددون .. وكل معبود وكل عابد له حكم فى ذلك الحشر .. والمواجهة ستكون علنية يراها الناس جميعا من عهد آدم إلى يوم القيامة .

هذا الحوار الذى سيتم ، وهذه المواجهة ستكون أمام الأشهاد جميعا .

قد يتساءل بعض الناس كيف يمكن لهذا الخلق كله أن يشهد ويسمع ويرى هذا الحوار مع وجود هذا العدد الهائل من البشر ؟ نقول لهؤلاء جميعا .. لو فكرتم قليلا لما أصابتكم الدهشة .. ماذا يحدث الآن عندما يكون هناك حدث مهم فى العالم تنقله الأقمار الصناعية .. ألا تستطيع الدنيا كلها أن تراه فى جميع الأماكن بالأرض

فى وقت واحد ؟

إذا كانت هناك مثلا بطولة العالم لكرة القدم .. ألا نستطيع أن نشهدها هنا فى مصر فى عشرات الألوف من المنازل فى وقت واحد .. ونسمع كل ما يدور هناك .. فإذا أحصينا ذلك فى العالم أجمع نجد أن هناك ملايين المشاهدين فى ملايين الأماكن المتفرقة من أقصى الدنيا إلى أقصاها .. يستطيعون أن يشهدوا هذا الحدث فى نفس لحظة حدوثه بالصوت والصورة .. إذا كانت هذه قدرة البشر للبشر .. فكيف بقدرة الله سبحانه وتعالى .. ألا تستطيع قدرة الله أن تجعل خلق الله كلهم يرون هذا الحوار ويشهدونه هم فى أماكنهم ؟ إن ذلك على الله يسير .

المهم أن هذا الحوار سيكون علنيا يشهده أهل الأرض كلهم .. يرون ويسمعون ما يدور .. سيرون ما يحدث .. وكيف سيكون الحساب .. وذلك مصداقا لقوله تعالى :

﴿ذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ ٱلنَّاسُ وَذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ ﴿١٠٣﴾﴾

(من الآية ١٠٣ من سورة هود)

المعبودون الذين عبدهم هؤلاء المشركون إما أن لهم علما بهذه العبادة .. أو لا علم لهم بها .. الذين لا علم لهم بأنهم معبودون ولا دعوة لهم إلى الناس أن يعبدوهم ، كالأصنام والشمس والقمر والأشجار والأحجار والرسل الذين اتخذوهم آلهة .. ولكن المعبود الذى له علم وله دعوة للناس لأن يعبدون غير الله إنما يتركز فى شياطين الجن ، وشياطين الانس .. ذلك أن إبليس وذريته وشياطين

الانس هم الذين يسعون فى الأرض ليفسدوا منهج الله . . هم الذين يحاولون أن يغروا الناس بالشرك ويزينون لهم السوء . . وهؤلاء على علم بما يعملون . . أما باقى مخلوقات الله كلها فلا علم بأنها تعبد . . ولا مطلب لها فى ذلك . . بل هى مسبحة لله خاشعة لله .

وهنا ، ويوم القيامة ، تحدث مواجهة بين الذين عَبدوا غير الله وبين ماعبدوا . . وهذه المواجهة تتم بين كل مخلوقات الله ماعدا الملائكة . . ذلك لأن الملائكة لا يواجههم الله سبحانه وتعالى بمن عبدوهم . . ولكن يسألهم مصداقا لقوله تعالى :

﴿ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ أَهَٰٓؤُلَآءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ﴿٤٠﴾ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم بَلْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ٱلْجِنَّ أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ ﴿٤١﴾ ﴾

(الأيتان ٤١ ، ٤١ من سورة سبا)

وهكذا يتبرأ الملائكة من أنهم كانوا معبدون من دون الله . . والله يعلم ذلك لأن الملائكة :

﴿ لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴿٦﴾ ﴾

(من الآية ٦ من سورة التحريم)

المواجهـــة .. مـــع المعبـــود

تأتى بعد ذلك المواجهة مع الشمس والقمر والنجوم والأصنام . فتبرأ جميعا ممن عبدها من البشر وتقول :

« سبحانك أنت ولينا »

.. وفى ذلك يقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا ﴾

(من الآية ١٦٦ من سورة البقرة)

وهكذا تقف كل هذه المخلوقات لتعلن أمام الله سبحانه وتعالى .. أنهم لا علم لهم بمن اتخذوهم آلهة .. وأنهم لم يدعوا أحدا لاتخاذهم آلهة .. ولذلك فعندما يخاطب الله سبحانه وتعالى الأحجار التى اتخذوا منها أصناما .. تقول الأحجار عدبونا ونحن أعبد لله من القائمين فى الأسحار .. ذلك أن هذه الأحجار تسبح بحمد الله .. مصادقا لقوله تعالى :

﴿ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ ﴾

(من الآية ٤٤ من سورة الاسراء)

بعض الناس يتساءل .. هل ستتحدث الأحجار يوم القيامة ؟ .. وهل ستنطق ؟ .. نقول لهم إن كل شىء سينطق يوم القيامة .. تسألونا كيف سينطق ؟ .. وبأى لغة سيتكلم ؟ .. ولكنها ستكون بلغة تفهمونها جميعا .. فإذا كان الانسان سيفهم لغة العين والسمع والجلود .. ويعاتب أعضاء جسمه فيقول لهم :

﴿ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا ﴾ (من الآية ٢١ من سورة فصلت)

ومعنى ذلك أنهم فهموا كلامهم .. وإلا لما قالوا :

﴿ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا ﴾

(الآية ٢١ من سورة فصلت)

فترد الجلود والأسماع والأبصار :

﴿ أَنطَقَنَا ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنطَقَ كُلَّ شَىْءٍ ﴾

إذن هناك حوار سيدور بين الانسان وسمعه وبصره وجلده فى لغة يفهمها الانسان . . وتفهمها هذه الأعضاء كلها . . وإلا فإنه لا يمكن أن يدور حوار إلا بين اثنين يتكلمان لغة مشتركة .

فلو أننا أتينا برجل إنجليزى لا يعرف كلمة واحدة من اللغة العربية . ورجل عربى لا يفهم كلمة واحدة من اللغة الانجليزية . . هل يمكن أن يدور بينهما حوار ؟ . . طبعا لا . . ولكن لابد أن تكون هناك لغة مشتركة ، وسيعلمنا الله سبحانه وتعالى يوم القيامة لغة كل أجناس الأرض . . ولغة كل مخلوقاتها التى نراها والتى لا نراها حتى يدور بيننا الحوار على أوسع مدى . . فنحن سنكلم الملائكة ونراهم ويروننا . . ونحن سنرى إبليس وذريته . . ويدور بينه وبين الكافرين حوار . . وكل شىء سيتكلم وينطق . . كل شىء كان صامتا فى هذه الدنيا سيتكلم . . وسينطق وسيشهد . . حتى الأشياء التى سخرها الله لارادة الانسان وجعلها خاضعة لهذه الارادة فى الدنيا كاللسان مثلا الذى جعله الله صالحا لأن يقول كلمة الايمان . . وأن يقول كلمة الكفر والعياذ بالله . . فإذا أمر الانسان لسانه أن ينطق كلمة الكفر أطاعه ونطقها . . ولكن هذا اللسان عابد وطائع ومسبح . . ولذلك يأتى يوم القيامة ويشهد على صاحبه . . بأنه أجبره على نطق كلمة

الكفر بما جعله الله مسخرا لارادة الانسان .

ولكن عندما تخمد الارادة البشرية بالموت . . يشهد كل شىء على الانسان . . ولا يملك الانسان أن يقهر عضوا من أعضائه . . على أن يفعل ما يغضب الله . . بل كل هذه الأعضاء تشهد على الكافر وتلعنه . . ولذلك فإن الحجارة التى هى أعبد لله من كثير من البشر . . ستشهد على من عبدوها يوم القيامة وتتبرأ منهم . . وكذلك الشمس والقمر والنجوم . . مصداقا لقوله تعالى :

﴿ إِذْ تَبَرَّأَ ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُوا۟ مِنَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوا۟ ﴾

الذين عبدوا البشر

فإذا ما انتقلنا إلى البشر ، وعلى قمتهم الرسل . . يأتى الله سبحانه وتعالى بعيسى ابن مريم :

﴿ وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِى وَأُمِّىَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ قَالَ سُبْحَٰنَكَ مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِى بِحَقٍّ ۚ إِن كُنتُ قُلْتُهُۥ فَقَدْ عَلِمْتَهُۥ ۚ تَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِى وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِكَ ۚ ﴾

(من الآية ١١٦ من سورة المائدة)

. . وهكذا يتبرأ الرسل من الذين عبدوهم من دون الله .

ويجد أولئك الذين أشركوا بالله أنفسهم فى موقف حقير جدا . . فهؤلاء الذين عبدوهم فى الدنيا وقدموا لهم القرابين . . وتعبوا أنفسهم فى إقامة التماثيل لهم من الذهب والفضة والمعادن النفيسة . .

هؤلاء الذين أمضى المشركون حياتهم يتقربون إليهم يبتعدون عنهم . . لأنهم رجس . . ولأنهم عمل غير صالح لابد أن يبتعد عنه الناس جميعا فى هذا اليوم العظيم . . ويحس أولئك المشركون بتفاهتهم وعظم ذنبهم . . ويتمنون لو أنهم سويت بهم الأرض ، أو كانوا ترابا . . بدلا من أن يقفوا هذا الموقف المخزى أمام الله سبحانه وتعالى .

الإنس والجن

ثم يأتى الله سبحانه وتعالى بعد ذلك إلى شياطين الجن والانس . . إلى إبليس الذى قال :

﴿ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٢﴾ ﴾

(من الآية ٨٢ من سورة ص)

إبليس الذى أعلن من يوم الخلق الأول أنه سيكون عدوا لآدم وذريته . . واستطاع أن يصل إلى ذلك بالقسم الذى يمكنه أن يفعل ما يقول . . فقال :

« فبعزتك لأغوينهم أجمعين »

. . أى يا ربى نشهد أن لك العزة . . وعزة الله عن خلقه جعلته غنيا عنهم :

﴿ فَمَن شَاءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاءَ فَلْيَكْفُرْ ﴾

(من الآية ٢ من سورة الكهف)

فبهذه العزة التى استغنى بها الله سبحانه وتعالى عن خلقه .. تدخل إبليس ليأخذ حق الغواية .. ولذلك فقد قال :

﴿ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٨٣﴾ ﴾
(الآية ٨٣ من سورة ص)

إذن فكل من عبد الله مخلصا وقاه الله غواية أبليس ... ولم يستطع أن يقدر عليه .. وكل من عبد الله وفى قلبه شك أو رياء أو نفاق فإن غواية الشيطان تدخل إلى نفسه .. فيزين له المعصية .. وإبليس يعرف ناحية الضعف فى الانسان فيغويه منها .

فإن كان الانسان ضعيفا أمام المال أغواه إبليس بالمال .. وإن كان الانسان ضعيفا أمام النساء أغواه إبليس بالنساء .. وإن كان الانسان ضعيفا أمام الحياة والسلطة والسلطان أغواه إبليس بالجاه والسلطان .

إذن فقد بقى الحوار والمخاصمة بين إبليس وذريته .. وبين ذرية آدم .. معزولا عنها هؤلاء الذين أخلصوا العبودية لله .. فهؤلاء ليسوا طرفا فى الخصومة .. لأن الله وقاهم ما يمكن إبليس وذريته من أن يغووهم .. فلم يعصوا ولم يشركوا ولم يكفروا .. وإنما عبدوا الله وأخلصوا له الدين .

يجمع الله إبليس وذريته ، وهم الفاسقون من الجن .. لأن هناك الجن الصالحين المؤمنين .. وهناك الجن الظالمون الفاسقون .. فالجن الذين يتبعون إبليس فى إغواء الانسان وفى إفساد منهج الله فى الأرض .. هؤلاء هم الذين يسمون الشياطين .. ولابد أن نعرف أن الجن هم مقابل الانس ولهم اختيار .. وإنه كما يوجد فى الانس

طائع وعاص . . كذلك يوجد فى الجن . . العاصون هم الشياطين الذين يخدمون فكرة إبليس فى إغواء الانسان بالكفر . . ويوجد من الانس من أغواهم الشياطين ، فأصبحوا فى خدمتهم يفسدون منهج الله . . وهؤلاء هم شياطين الانس .

إذن فالحوار بين من ومن ؟ . . أيكون الحوار بين الذين عبدوا ولم يعرفوا شيئا عن ذلك . . أم يكون بين شياطين الانس وشياطين الجن الذين خالفوا المنهج . . قول الله سبحانه وتعالى :

﴿ وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ﴾

(من الآية ٢٢ من سورة الانعام)

. . يشمل كل مخلوقاته . . الملائكة والأحجار والكواكب والرسل والشياطين الجن والانس . . والخطاب فى القرآن موجه للأحياء . . الله سبحانه وتعالى يريد أن يقول لنا اذكروا جيدا وأنتم فى الدنيا أنكم ستحشرون حشرا إلى موقف تفضحون فيه أمام كل مخلوقات الله :

﴿ وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوٓاْ ﴾

(من الآية ٢٢ من سورة الانعام)

إذن فالكلام هنا : ونقول للذين ، أشركوا من الانس والجن مكانكم . . وحين تسمع إنسانا يقول لك مكانك . . يعنى لا تتحرك حتى ينتهى هذا الموقف ويحسم . . وهى كلمة وعيد . . كلمة تهديد من الله سبحانه وتعالى . . ومعناها لا تتحركوا فإن لى معكم موقفا . . وهذا الموقف ليس فى صالحكم . . الذين أشركوا يحسبون أنهم قد ضاعوا فى زحام الآخرة . . وأنهم أفلتوا من المواجهة . . ومن

الفضيحة أمام خلق الله .. والله سبحانه وتعالى يقول لهم : ﴿ مكانكم أنتم وشركاؤهم ﴾ .. أى كل الذين اجتمعوا على باطل يجمعون معا .. ولكن الله سبحانه وتعالى لا يريهم فى معسكر واحد .. إنه يريد الذين أغووهم فى معسكر .. الذين قاموا بالغواية والاضلال فى معسكر .. والذين خضعوا لهذه الغواية فى معسكر آخر .. ويقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ فَزَيَّلْنَا بَيْنَهُمْ ﴾.

(من الآية ٢٨ من سورة يونس)

.. أى فرقنا بينهم .. حتى يصبح هناك فريق يواجه فريقا :

﴿ وَقَالَ شُرَكَآؤُهُم مَّا كُنتُمْ إِيَّانَا تَعْبُدُونَ ﴿٢٨﴾ ﴾

(من الآية ٢٨ من سورة يونس)

ما هـــو المـــيزان

هنا لابد لنا من وقفة .. إذا كان هذا هو الحوار أو جزءا من الحوار الذى يدور فى الآخرة .. فهل هذا هو الميزان ؟ .. وهل هذا هو الحساب ؟ .. أم أن الحساب هو شىء مختلف تماما عن كل هذه المشاهد .. بحيث هناك هذه المشاهد وحدها ، ثم بعد ذلك يكون الحساب .

قبل أن نبدأ الاجابة عن هذا السؤال .. لابد أن نرد على الفكرة التى تقول : إن هناك ميزانا منصوبا فى الآخرة .. توضع فيه السيئات فى كفة ، والحسنات فى كفة .. فمن ثقلت حسناته وأعماله الصالحة

يذهب إلى الجنة . . ومن زادت سيئاته على حسناته يذهب إلى النار .

فكرة ماديات الدنيا هذه لا يمكن أن تكون فى الآخرة . . ليست المسألة أوراقا مكتوبة بشكل مادى . . وإنما فكرة الميزان هى فكرة العدل فى أساسه . . بل هى دقة متناهية فى العدل الذى لا يقوم شىء بدونه . . لقد سئل على بن أبى طالب كيف سيحاسب الله الناس فى وقت واحد يوم القيامة ؟ . . قال على رضى الله عنه كما يرزقهم فى وقت واحد فى الحياة الدنيا . . الله سبحانه وتعالى يقول :

﴿ وَٱلسَّمَآءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ ٱلْمِيزَانَ ﴿٧﴾ ﴾

(الآية ٧ من سورة الرحمن)

. . أى ميزان العدل .

وأنت تدخل إلى دار القضاء مثلا ترى رسما للميزان موضوعا فى المكان الذى يجلس فيه القاضى . . هل القاضى يأتى بميزان مادى ليحكم فى القضايا . . أم أن هناك ميزانا فى كل نفس وضعه الله لتفرق أنت بين الحق والباطل .

حينما تجد إنسانا فى تفكير عميق . . فإذا سألته لماذا هو صامت . . قال لك إنه يزن الأمور قبل أن يتكلم . . هل جاء بميزان مادى أم أن الميزان داخل نفسه . . يضع هذه الحقيقة هنا . . ويضع هذه الحقيقة هنا ، ويزن كل شىء بعقله . . وهل إذا جار عليك إنسان ، وأخذ منك حقوقك ، وقلت له : إن كفة الميزان مالت ناحيتك . . أيكون هناك ميزان مادى . . إن الميزان فى الدنيا معناه الحق . . معناه التفريق بين الحق والباطل . . معناه العدل فى كل شىء . . العقل

يستطيع أن يعرف جيدا فى كل أمر من أمور الدنيا . . إذا كانت كفة الميزان معتدلة أو مائلة . . الله وضع فينا فطرة الايمان . . ومع فطرة الايمان فهمنا فكرة الميزان لنفرق بين الحق والباطل . . ولا يستطيع إنسان أن يمضى فى الحياة ، دون أن يكون هناك ميزان فى نفسه . . يزن الأمور حتى بعيدا عن الدين . . وهذا الميزان فى عقل كل منا وفى تكوينه .

الانسان عندما يبعث يوم القيامة يكون معه سائق وشهيد . . السائق عرفناه . . هو الملك المكلف به لكى يوصله إلى المكان المحدد له ، فلا يذهب يمينا أو يسارا . . وإنما يسوقه أمامه . . والناس يوم القيامة تذهب جماعات . . جماعات من المؤمنين . . وجماعات من غير المؤمنين . . أما الشهيد الذى مع الانسان فهو عمله يشهد عليه . . إقرأ قول الحق سبحانه وتعالى :

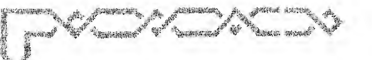
﴿ ٱقْرَأْ كِتَٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ﴿١٤﴾ ﴾

(الآية ١٤ من سورة الاسراء)

والنفس هى التقاء الروح بالجسد . . وهذا يحدث مرتين : مرة فى الحياة الدنيا دار الاختيار . . ومرة فى الحياة الآخرة لينعم الانسان أو يعذب . . ومادام التنعيم والتعذيب لم يأت وقتها بعد . . فإن الحديث هنا عن الحياة الدنيا . . فى قوله تعالى :

﴿ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ﴿١٤﴾ ﴾

كيف تكون النفس شهيدة على صاحبها . . تكون بأنها تحمل



كتابا فيه كل ما حدث فى الحياة الدنيا مسجلا بالصوت والصورة .

ما ترى وما لا ترى

بعض الناس قد يتعجبون من هذا الكلام . . ولكننا كما قلنا الله سبحانه وتعالى رحمة بعقولنا . . قد أعطانا من الماديات فى الدنيا ما يسهل لهذه العقول أن تعى شيئا عن الغيبيات . . فكما تحدثنا كيف أن الوجود شىء وإدراك الوجود شىء آخر . . وأثبتنا ذلك بالدليل العلمى . . حتى إذا حدثنا الله سبحانه وتعالى أن هناك شيئا موجودا ، ونحن لا نراه . . لا نقول : إن هذه قضية مستحيلة . . ولكننا نقول : إنها قضية ممكنة وقائمة وعليها دليل . . وإذا كانت قدرة الانسان قد أثبتت أن ما هو غيب موجود . . فما بالك بقدرة الله سبحانه وتعالى .

فلنستجمع قليلا ما نراه اليوم . . ألاتدير الردايو فتستمع إلى صوت الشيخ محمد رفعت يؤذن للصلاة . . أين هو الشيخ محمد رفعت . . غير موجود الآن . . لقد مات منذ سنوات طويلة . . ولكن صوته مازال موجودا . . استطاع الانسان بالعلم الذى كشفه الله له أن يبقى الصوت فى الكون بينما صاحبه انتقل إلى رحمة الله . . بل إن الأبحاث العلمية الحديثة قد أثبتت أن الأصوات لا تفنى . . بل سابحة فى الفضاء . . وهناك جهود علمية لم تكلل بنجاح تحاول أن تسجل أصوات الأنبياء والعظماء الذين مازال التاريخ يذكرهم من بين بلايين الأصوات السابحة فى الفضاء . . ولكن للدقة

المتناهية التى يحتاجها مثل هذا العمل . . وللعلم الواسع الذى لابد أن يستند إليه . . لم يكشف الله سبحانه وتعالى من علمه للبشر ما يمكنه من ذلك .

فإذا انتقلنا بعد ذلك إلى التليفزيون . . فإننا نجد برامج تذاع حدثت فى عام ١٩٣٠ وقبل عام ١٩٣٠ . . ونرى فيها الأشخاص الذين قاموا بهذه الأحداث ، وهم يتكلمون ويتحركون وكأنهم أحياء . . مع أنهم انتقلوا من عالمنا منذ حوالى ستين سنة . . ولو احتفظنا بهذه الأفلام لاستطعنا أن نعرض هذه الأحداث بعد مئات السنين . . بل إن المعارك التى دارت فى الحرب العالمية نستطيع أن نراها وكأنها تحدث الآن .

إذا أردنا أن نجرى تجربة وقلنا : أننا سنسجل حياة فلان بالصوت والصورة منذ ساعة مولده حتى ساعة مماته . . ألا نستطيع ؟ . . طبعا نستطيع . . ثم بعد ذلك أخذنا هذا التسجيل ، واحتفظنا به مائة سنة ، ثم عرضناه . . ألا نرى تاريخا كاملا لحياة هذا الانسان . . إذا كانت هناك الآن آلات بالغة فى الدقة تخطئها العين ، ولا تحس بها . . تسجل لنا بالصوت والصورة وتستخدمها المخابرات فى العالم . . ألا يستطيع الله سبحانه وتعالى أن يضع فى ذرات هذا الكون ما يتم به ذلك ؟ . . وهل الملائكة التى تكتب الحسنات والسيئات وتحصيها . . وتكتب على الانسان كل أعماله . . تحصى هذه الأعمال وتسجلها على الانسان بشكل يجعل الكافر وغير المؤمن . . يستطيع أن ينكرها دون أن يكون هناك دليل قوى يدحضه ويفحمه إذا حاول أن يكذب على الله .

إن من دقة الكتاب الذى سيحمله الانسان معه يوم الحساب . . أن المجرمين سيقولون :

﴿ يَـٰوَيْلَتَنَا مَالِ هَـٰذَا ٱلْكِتَـٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا ۚ

(من الآية ٤٩ من سورة الكهف)

. . أى أنه أحصاه غاية فى الدقة . . حتى الأشياء التافهة التى نسيها الانسان . . والأشياء الصغيرة سيجدها فى كتابه . . مصداقا لقوله سبحانه وتعالى :

﴿ أَحْصَىٰهُ ٱللَّهُ وَنَسُوهُ ۚ ﴾

(من الآية ٦ من سورة المجادلة)

ما عملوا حاضرا

ما معنى قوله سبحانه وتعالى :

﴿ وَوَجَدُوا۟ مَا عَمِلُوا۟ حَاضِرًا ۗ ﴾

(الآية ٤٩ من سورة الكهف)

. . وما هو الدليل الدامغ يوم القيامة . . لأن يكون الانسان شهيدا على نفسه إلا أنه يرى كل حياته أمامه . . كفيلم سينمائى سجل كل شىء . فإذا أنكر أى شىء فإنه يواجه بما كان يفعل بالدليل الدامغ . . إذا كانت قدرة الانسان فى تسجيل الأحداث قد وصلت إلى هذا الحد المذهل ، فما هى قدرة الله سبحانه وتعالى . . وقول الحق :

﴿ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ﴿١٤﴾ ﴾

(من الآية ١٤ سورة الاسراء)

معناه أن كل إنسان ستشهد عليه نفسه بكل ما حدث ولن يستطيع أن ينكر شيئا . . لأنه سيرى كل شيء . . لعل الله سبحانه وتعالى غير قادر على أن يرينا حياتنا كلها لحظةبلحظة فى ساعة الحساب . . أليس هذا ممكنا ؟ .

إذن ففيم المجادلة ؟ . . وهل قدرة الملائكة أقل من قدرة الانسان بحيث تستطيع أية قوة من قوى التجسس فى الدول المتقدمة ، أو حتى المتخلفة . . أن تسجل على الانسان الأحداث التى تقع وتواجهه بها . . ولا تستطيع الملائكة الحفظة الأبرار أن يقوم بأكثر من هذا . . إن مجرد النقاش فى أن هذا ممكن أن يحدث يرفضه العقل .

ونحن حين نمثل ما سيحدث يوم القيامة بالامكانيات المادية الموجودة فى الدنيا . . فإنما نحاول أن نقرب ذلك من الأذهان . . ولكن الله الذى ليس كمثله شيء . . لن يجعلنا نرى كتابنا بهذه الطريقة البدائية . . بل فى علمه أشياء وأشياء . . والمهم أن الانسان سيرى كل ما فعله . . وسيشهد ويسمع كل كلمة قالها . . حتى يكون هو الشهيد على نفسه . . ويكون عدل الله وأفعاله فلا يستطيع أن ينطق .

حينما يواجه الانسان بكتابه لا تستطيع أن ينكر . . ولا أن يقول لم أفعل ولا أن يجادل فى أنه ظلم . . بل كلنا يوم القيامة سنشهد بعدل الله . . حتى الذين سيخلدون فى نار جهنم سيشهدون أن عقابهم

حق . . وأنهم هم الذين ظلموا أنفسهم . . وأن الله لم يظلمهم . . قد يطلبون الرحمة . . قد يطلبون فرصة أخرى . . ولكنهم لا يمكن أن يدعوا مهما كان الكبر فى صدورهم أنهم ظلموا فى يوم الحساب . . وهذا ما سنبينه فى الفصول القادمة . . ونحن نتحدث عن مشاهد يوم القيامة .

■ ■ ■



الفصل السادس

يوم الحشر



يوم الحشر

مشاهد يوم القيامة كما قلنا متعددة . . ولا يمكن حصرها فى كتاب واحد . . ولكننا هنا نأتى ببعض اللقطات التى تقرب الصورة لأذهاننا فيما سيحدث يوم القيامة . . ولقد تحدثنا فى الفصل السابق عن المشركين الذين اتخذوا آلهة من الشمس والقمر والنجوم والأحجار والبشر . . وقلنا . . إنه فى يوم القيامة سيحشر الله هؤلاء جميعا . . فهناك منهم من عبده الناس ، وهو لا يدرى عن عبادتهم شيئا . . فالشمس والقمر والنجوم والأحجار والأشجار وغيرها لم يطلبوا من أحد أن يعبدهم . . بل هم أعبد الله من القائمين فى الأسحار . . وهم لم يرسلوا رسلا إلى البشر ليقولوا لهم اعبدونا . . أو ليبلغوهم بمنهج عبادة .

فالشمس لم ترسل رسولا مثلا إلى من عبدوها لتدعى أنها إله . . وتطلب منهم أن يسجدوا لها وتقول لهم : إن منهجى كذا وكذا . . وكذلك النجوم والأحجار التى اتخذوا منها أصناما .

لذلك فإن هؤلاء جميعا يتبرأون يوم القيامة من أولئك الذين اتبعوهم . . ويتجهون لله سبحانه وتعالى يسبحونه . . بل إن الأحجار التى عبدها الناس . . يجعلها الله سبحانه وتعالى وقود النار يوم القيامة . . وتكون الأحجار سعيدة بذلك ، وهى تحرق من عبدها من دون الله وتذيقه العذاب .

كما أن هناك من الرسل من اتخذهم الناس آلهة . . يؤتى بهم يوم القيامة ليتبرأوا أمام الأشهاد . . أمام خلق الله كلهم . . من الذين ابتعوا واتخذوهم آلهة وفى هذا يقول الحق سبحانه وتعالى لعيسى بن

مريم عليه السلام :

﴿ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَـٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ ﴾

(من الآية ١١٦ من سورة المائدة)

بماذا يرد عيسى ابن مريم يقول :

﴿ سُبْحَـٰنَكَ ﴾

(من الآية ١١٦ من سورة المائدة)

أى تعاليت يا رب وتنزهت عن هذا . . فنحن جميعا عبيدك نسبح بحمدك . . ثم يكمل عيسى بن مريم كلامه :

﴿ إِن كُنتُ قُلْتُهُۥ فَقَدْ عَلِمْتَهُۥ ۚ تَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِى وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِكَ ۚ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّـٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴿١١٦﴾ مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَآ أَمَرْتَنِى بِهِۦٓ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ ۚ ﴾

(من الآيتين ١١٦ ، ١١٧ من سورة المائدة)

وهكذا يتبرأ عيسى عليه السلام من أولئك الذين اتخذوه إلها ويقول إن الله سبحانه وتعالى يعلم ما نعلن وما نخفى . . فإن كان عيسى عليه السلام قد قال هذا علنا ، فقد علمه الله سبحانه وتعالى . . وإن كان قد قاله سرا وفى نفسه فقد علمه الله سبحانه وتعالى . . لأنه يعلم ما تخفى الصدور . . ويكون هذا على مشهد من جميع خلق الله منذ عهد آدم إلى يوم القيامة . . وهم يشاهدون كل

ما يحدث ويتابعونه لتكون الفضيحة علنا وأمام كل خلق الله .

نـرى جميعـا

الله قادر على أن يجعل خلقه جميعا يرون كل ما يحدث دون عناء أو تعب . . كما ترى الدنيا كلها الشمس دون عناء أو تعب . . وكما يرى الناس يوم باستخدام قوانين الله التى وضعها الله سبحانه وتعالى فى الكون ليروا جميعا فى وقت واحد . . وفى ملايين الأماكن المتفرقة حدثا يقع فى العالم فى نفس لحظة وقوعه عن طريق الأقمار الصناعية . . وإذا كانت هذه قدرة البشر الآن . . فماهى قدرة البشر بعد آلاف السنين فى نقل الأحداث بالصوت والصورة إلى كل أجزاء الدنيا . . ثم بعد ذلك ما هى قدرة الله سبحانه وتعالى فى الآخرة ؟

بقى المشهد الذى يتم بين الذين عبدوا غير الله عن علم وعن قصد . . وهم شياطين الجن والانس . . . أولئك الذين أفسدوا فى الأرض . . يقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ قَدِ ٱسْتَكْثَرْتُم مِّنَ ٱلْإِنسِ ﴾

(من الآية ١٢٨ من سورة الأنعام)

والله سبحانه وتعالى يخاطب الجن . . أو يخاطب شياطين الجن فيقول لهم لقد أخذتم نصيبا كبيرا من الانس إلى جهتكم . . فأضللتوهم وقدتموهم إلى طريق الفساد . . والله سبحانه وتعالى يخاطب الجن ويقول لهم استكثرتم من الانس والجن لا يردون . . ولكن من الذى يتكلم ؟ . . الذى يتكلم هم الانس الذين اتبعوا

شياطين الجن .. يقولون :

« وقال أولياؤهم »

أى المتابعون لهم من شياطين الانس :

﴿ رَبَّنَا ٱسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ وَبَلَغْنَآ أَجَلَنَا ٱلَّذِىٓ أَجَّلْتَ لَنَا ﴾

(من الآية ١٢٨ من سورة الأنعام)

إذن فالكلام هنا من الانس عن أنفسهم ، وأيضا عن أوليائهم من الجن - إنهم يدافعون عن شياطين الجن الذين أخذوا كثيرا من الانس إلى جانبهم .. كيف ذلك ؟ .. لأن الله سبحانه وتعالى أعطى الجن فى تكوينهم ما لم يعطه للانسان من ناحية التكوين .. فجعل الجن يرون الانس ، بينما الانس لا يرونهم .. مصداقا لقوله تعالى :

﴿ إِنَّهُۥ يَرَىٰكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُۥ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ ﴾

(من الآية ٢٧ من سورة الأعراف)

وأعطى الله الجن أيضا قوة أكثر من الانس .. ولذلك عندما طلب سليمان من يحضر له عرش بلقيس ملكة سبأ قبل أن تصل إليه .. ومعنى هذا أن سليمان قال هذا الطلب بعد أن غادرت بلقيس ومن معها اليمن فى طريقهم إلى بيت المقدس .. وكان فى مجلس سليمان الانس والجن وغيرهم .. لم يتكلم إنسى واحد ليقول : إنه يستطيع أن يحضر عرش بلقيس .. لماذا ؟ .. لأن الانس مخلوق من طين .. امكانياته محدودة ، فهو لا يستطيع أن يقوم بهذه المهمة .. بينما الجن مخلوق من نار .. يستطيع أن ينفذ من الجدران والسواتر الحديدية ..

وأن يسافر وينتقل من مكان إلى آخر بسرعة هائلة .

ولذلك فإن المخلوق من نار ، قانونه نافذ بطبيعة تكوين النار التى تشع فيخترق إشعاعها الجدران . . بحيث تصل حرارتها إلى من يجلس وراء الجدار . . هذه بعض قوانين الجن التى تختلف عن قوانين الانسان . . لذلك عندما قال سليمان عليه السلام :

﴿ أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَن يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ ﴿٣٨﴾ ﴾

(من الآية ٣٨ من سورة النمل)

سكت الانس الذين كانوا فى مجلس سليمان ، لأن نقل العرش من اليمن إلى مكان سليمان . . يحتاج إلى زمن وإلى قوة وإلى سرعة ، وهذه لا تتوافر فى الانس بحكم خلقهم . . ولذلك كان أول من تكلم هوعفريت من الجن . . أما الانسان فلم يدخل نفسه فى تجربة يعلم أنه لا يستطيعها . . فسليمان قد علم أن ملكة سبأ فى طريقها إليه لتعلن إسلامها . . وهو يريد من الذى يذهب ليأتى بالعرش من قصر ملكة سبأ . . أن يتميز أولا بالسرعة التى تتفوق على الانسان بمراحل كثيرة . . لأن هذا الذى سيذهب جالس مع سليمان . . بينما ملكة سبأ فى طريقها إلى سليمان . . ولذلك فلابد أن يقطع المسافة من مكان سليمان إلى قصر ملكة سبأ . . ثم يحل العرش . . ثم يحمله ويكون حريصا عليه . . ثم يأتى به إلى سليمان . . كل هذا فى وقت أقل من الذى ستقطع فيه بلقيس ملكة سبأ المسافة بينها وبين سليمان ، وكانت قد قطعت فعلا جزءا من الطريق .

مــن الـــذى تــكلم

إذن فلم يتكلم الانسان ولا الجن العادى . . وإنما تكلم عفريت من الجن . . مما يدلنا على أن الجن غير متساوين فى القدرة بل إنهم متفاوتون فيها . . والذى تكلم هو عفريت من الجن . . أى أقوى الجن . . وقال :

﴿ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ ﴾

(من الآية ٣٩ من سورة النمل)

ومقام سليمان أو مجلسه لا نعرف زمنه ساعة أو ساعتين أو أكثر . . ولكن العفريت الذى يتكلم يعرف الزمن . . وهنا :

﴿ قَالَ ٱلَّذِى عِندَهُۥ عِلْمٌ مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ ﴾

(من الآية ٤٠ من سورة النمل)

أى قبل أن تطرف عينك . . وقبل أن يقول لسليمان نعم . . وجد عرش بلقيس أمامه :

﴿ فَلَمَّا رَءَاهُ مُسْتَقِرًّا عِندَهُۥ ﴾

(من الآية ٤٠ من سورة النمل)

أى أن المسألة لم تتحمل حتى مجرد الكلام . . وهكذا إذا كان الله قد خص الجن بقوانين متفوقة . . فقد أعطى بشرا من خلقه قدرة أكبر تخضع الجن لها . . ذلك أن التميز ليس بالتكوين فقط ، ولكن بإرادة المكون والخالق .

مــن العـــــدو ؟

وهكذا يريد الحق سبحانه وتعالى ، وهو يعرض علنيا مشاهد القيامة ، أن يقول لنا . . أنه أعطى الجن ميزات كثيرة . . وأنهم استخدموا هذه الميزات فى التكوين فى الشر والاضلال . . حينئذ يرد أولئك الذين اتبعوا شياطين الجن :

﴿ رَبَّنَا ٱسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ ﴾ (من الآية ١٢٨ من سورة الأنعام)

ما معنى هذا ؟ . . هل استمتع الجن بالانس . . أم استمتع الانس بالجن . . كلاهما استمتع بالآخر . . استمتع الجن بالانس فى إعانته على المعاصى . . ومادامت شياطين الجن تعين الانسان على المعصية فهذا استمتاع لها . . لأن العداوة بين شياطين الجن والانس منذ لحظة خلق آدم . . ولذلك يقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّا ﴾

(من الآية ٦ من سورة فاطر)

فكان إبليس ومن تبعه من الجن متعتهم فى الحياة أن يقودوا الانسان للمعصية والهلاك . . تماما كما يكون لك عدو وتدبر له مصيبة . . فإنك تستمتع وأنت تدبر له هذه المصيبة . . ثم تستمتع أكثر عندما تنفذها . . ثم تستمتع أكثر وأكثر وأنت تراه يعذب . . فهذا هو استمتاع الجن بالانس . . استمتاع ذلك الذى يوقع عدوه فى مصيبة ، ويقوده إلى النار . . وهو يفعل ذلك يكون فى قمة السعادة والاستمتاع . . وهذه هى مهمة الشيطان . . وبذلك يتحقق قول

إبليس : لأغوينهم ولاقعدن لهم صراطك المستقيم .

ولكن ماذا عن استمتاع الانس بالجن .. لأن الجن قد زين للانسان شهواته .. وجعل النفس البشرية التى تتبعه تستمتع بكل شهواتها وأهوائها فى الحياة الدنيا .. وذلك أن شياطين الانس لا يعيشون بمنهج .. ولكنهم يجرون وراء شهواتهم .. فيأخذون المال الحرام .. ويعتدون على حرمات الناس .. ويفعلون كل ما تريده أنفسهم من ظلم وفساد .. وفى هذا يكون الانس الذى اتبع وحى شياطين الجن قد استمتع بحياته كلها .. ففعل ما يريد دون وازع من ضمير ، أوخلق أو دين .

وهكذا يكون استمتاع الانس بالجن .. استمتاعا عاجلا لشهوات النفس يعقبه حسرة وندم .. ولذلك فإن أولئك الذين يشتغلون بالسحر والجن يريدون أن يحققوا شهوات لأنفسهم فوق قدراتهم .. ولكنها تنقلب وبالا عليهم .. مصداقا لقوله تعالى :

﴿ وَأَنَّهُۥ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ ٱلْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا ﴿٦﴾ ﴾

(الآية ٦ من سورة الجن)

أى أتعبوهم لأن العداوة بين شياطن الجن والانس تجعله يقدم له العون أولا حتى يتبعه ، ثم ينقلب عليه .

والعجيب أنك تجد أن أولئك الذين يسخرون الجن رزقهم من أولئك الذين لا يعلمون عن السحر شيئا .. لوكان فعلا خيرا لاستطاعوا هم أن يرزقوا أنفسهم .. ولا تجد من يشتغل بهذه المسائل إلا وفى ذريته شذوذ .. الأعور والأعرج والأكتع .. لماذا ؟ .. ليلزم

كل إنسان أدبه وقدر ربه فيه ولا يتكبر .. تماما كالذى يستعين بالفتوات ليسيطر على الناس .. ثم إذا ضعف ينقلب عليه الحى الذى كان يسيطر عليه فيذيقه الهون والعذاب .

إذن فالانس يردون :

﴿ رَبَّنَا اسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ وَبَلَغْنَا أَجَلَنَا الَّذِي أَجَّلْتَ لَنَا ﴾

(من الآية ١٢٨ من سورة الأنعام)

يعنى مادمنا نحن على قيد الحياة .. فنحن مضينا فى منهج الاستمتاع .. فاستمتع الجن بأنه قاد الانسان إلى المعصية .. واستمتع الانسان بمتعة المعصية حتى جاء الأجل .. فماذا وجدوا ؟ .. قال الحق سبحانه وتعالى :

﴿ النَّارُ مَثْوَاكُمْ ﴾

(من الآية ١٢٨ من سورة الأنعام)

أى أن المستمتع الأول والمستمتع الثانى فى النار .

وقـال الشـيطـان

ويعطينا الحق سبحانه وتعالى صورة تكمل هذه الصورة فى قوله جل جلاله :

﴿ وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ ۖ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ ﴾

﴿ لِي فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوٓا أَنفُسَكُم مَّآ أَنَا۠ بِمُصۡرِخِكُمۡ وَمَآ أَنتُم بِمُصۡرِخِيَّ إِنِّي كَفَرۡتُ بِمَآ أَشۡرَكۡتُمُونِ مِن قَبۡلُۗ إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ﴿٢٢﴾ ﴾

(الآية ٢٢ من سورة إبراهيم)

الله سبحانه وتعالى يريد أن يعطينا الصورة كاملة فى يوم الحساب . . شياطين الجن وشياطين الانس قالوا إنهم استمتعوا ببعضهم البعض فى الحياة الدنيا ، ، فقضى الله بينهم بأن النار هى مصيرهم ومثواهم . . عندما قضى الأمر التفت شياطين الانس إلى إبليس الذى قادهم إلى هذه الهاوية . . التفتوا إليه يستنجدون به من النار التى سيقذفون فيها . . ماذا قال إبليس ؟ . . قال الحقيقة لأن حياة الخداع قد انتهت وقد أصبحنا فى مرحلة اليقين . . لم يعد هناك ظن ولا غيب . . فقد كشف الله حجب الغيب للناس ، وانتهت مهمة إبليس . . فإبليس طلب من الله سبحانه وتعالى أن يمهله إلى يوم البعث .

وفى ذلك يقول الحق :

﴿ فَأَنظِرۡنِيٓ إِلَىٰ يَوۡمِ يُبۡعَثُونَ ﴿٧٩﴾ ﴾

(من الآية ٧٩ سورة ص)

أى يا ربى أعطنى مهلة إلى يوم البعث قبل أن أخلد فى العذاب . . ذلك أن إبليس رد الأمر على الآمر . . رد الحكم على الله . . قال :

﴿ أَنَا۠ خَيۡرٞ مِّنۡهُ خَلَقۡتَنِي مِن نَّارٖ وَخَلَقۡتَهُۥ مِن طِينٖ ﴿٧٦﴾ ﴾

(من الآية ٧٦ من سورة ص)

وقال :

﴿ ءَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا ﴿٦١﴾ ﴾

(الآية ٦١ من سورة الاسراء)

ففى كلا الأمرين رد الأمر على الله .

وفى ذلك يجب أن نأخذ مبدأ إيمانيا هاما بالنسبة لأولئك الذين لا يستطيعون أن يحملوا أنفسهم على منهج الله . . من الخير لهم أن يقولوا إن منهج الله حق ولكننا لا نستطيع أن نحمل أنفسنا على المنهج . . أما أن نرد الحكم على الله ونقول : إن الربا حلال وأن قطع يد السارق حرام . نقول لكل من يتخذ هذا السلوك . . لا ترد الحكم على الله فتكون فى صف إبليس مطرودا من رحمة الله . . ولكن قل إن كل ما فى منهج الله حق . . ولكننى لا أستطيع أن أحمل نفسى على الايمان . . فبدلا من أن تكون كافرا إن رددت الحكم على الله . . تكون عاصيا إن أقررت بذنبك . . بخطئك . . معصية يمكن أن تستغفر منها فيغفر لك الله . . وأن تتوب منها فيتوب الله عليك . . أما أن ترد الحكم على الله فهذا كفر .

وانتهــت المهـــلة

إذن فقد انتهت المهلة التى أعطاها الله سبحانه وتعالى لابليس . . وجاء اليوم الذى يحاسب فيه . . ولم تعد تفيده عداوته لآدم شيئا . . فلم يعد هو قادرا على غواية الانسان . . ولم يعد الانسان مستجيبا له . . انتهى كل هذا لأن الحياة أصبحت غير الحياة . . ولم يعد

الشيطان يستطيع أن يغوى أحدا فى يوم البعث . . ونحن نرى النار والجنة والجزاء والحساب . . فلم يعد أمام الشيطان إلا أن يقول الحق . . لأنه لو كذب فإن كل ما هو حادث يكذبه . . ولم يعد الموقف يسمح بالكذب والشيطان يرى جهنم التى سيلقى فيها ، ويخلد إلى الأبد . . فى هذا الموقف الرهيب لا يستطيع الانسان أن يقول إلا الصدق . . تماما كساعة تنفيذ حكم الاعدام على القاتل ، وهو يقاد إلى المشنقة . . هل فى هذه الحالة هو صالح للكذب . . إن هول الموقف يجعل لسانه لا يستطيع أن ينطق إلا الحق . . فما بالك وإبليس يواجه نار جهنم وعذاب الله .

ماذا قال الشيطان عندما قضى الأمر ، وقال الله :

﴿ ٱلنَّارُ مَثْوَىٰكُمْ ﴾

(من الآية ١٢٨ سورة الانعام)

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ ٱلْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ ﴾

(من الآية ٢٢ سورة إبراهيم)

أى أن الله سبحانه وتعالى كان وعده حقا ، ووعد الشيطان كان كذبا . . يمنى الانسان ويغريه بالأكاذيب ليرتكب المعاصى . . ويزين له العمل السيىء . . فوعده كذب ، ووعده لا يتحقق .

والشيطان فى هذا يظل يغرى الانسان حتى يكذب الانسان على نفسه . . ويعتقد زيفا أنه سيفلت من عقاب الله . . أو أن العذاب سيكون يسيرا ، ثم بعد ذلك يدخل الجنة . . وعندما يأتى الانسان ليتوب يأتى الشيطان فيقول له . . أجل التوبة حتى تكبر فى السن ، ثم

بعد ذلك لا يمهل الأجل الانسان ليكبر فى السن .. وكل إنسان لديه امتدادات الأمل .. بمعنى أنه لو لم يحقق ذلك اليوم فإنه سيحققه غدا .. وهناك آمال كثيرة فى حياة الناس قد لا تتحقق أبدا .. ولكننا نعيش على أمل أنها ستتحقق .. ومهمة الشيطان أن يعطى للانسان الأمل الكاذب .. الأمل الذى لن يتحقق .. فيغريه بالمعصية تلو المعصية ويهمس إليه أن الأجل لا يزال طويلا .. ويمنيه بأنه سيفعل كذا وسيحقق كذا بالمال الحرام .. وقد يكون هذا المال الحرام نكبة عليه وعلى أولاده فيصيبه بالكوارث والأمراض ، مما يجعلهم يتمنون لو أن هذا المال لم يأت .. هذه هى بعض وعود الشيطان التى تكون دائما مخالفة للحقيقة .

معــنى الســلطـان

ثم يقول الشيطان :

﴿ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍ ﴾

(الآية ٢٢ من سورة إبراهيم)

والسلطان هو قوة القهر .. أى أن الشيطان ليس له قوة القهر ليقهر الانسان على المعصية .. والسلطان إما أن يكون قوة مادية تقهر بأن أطلب من إنسان أن يذهب إلى مكان فيرفض ، فأقيده بالسلاسل ، وأحمله إلى هناك .. أو أن أطلب منه أن يقوم بعمل فلا يطيعنى ، فأحضر بعض أعوانى بالعصى والسياط ويلهبون ظهره حتى يفعل ما أريد .. أو يكون السلطان هو سلطان الحجة .. حيث تأتى

للانسان وتظل تتحدث معه حتى تقنعه بأن يقوم بالعمل الذى تريده ، فيقتنع اقتناعا يجعله يفعل ما تريده منه ، ولكن باختياره . . كلاهما سلطان ، سواء اتبعت القهر أو اتبعت الحجة والاقناع . . والشيطان لم يعط سلطان القهر . . فهو لا يستطيع أن يقهر إنسانا على معصية بالقوة والقهر . . وليس للشيطان حجة ليقنع بها الانسان ، فيجعله يرتكب المعصية ، بحجة الاقناع . . ولكن لابد أن يوجد فى داخل النفس أولا هوى ورغبة للمعصية ، فيأتى الشيطان ويزينها له . . كأن يكون الانسان يريد أن يعيش عيشة مرفهة ولكنه لا يملك المال . . وجدت الرغبة أو الشهوة فى داخل النفس البشرية . . حينئذ يأتى الشيطان ليزين لك المال الحرام . . ويقول : إذا سرقت هذا المال فستحصل على عيشة الرفاهية التى تتمناها . . ويظل يوسوس لك بذلك حتى تسرق . . أو يزين لك جمال امرأة مستهترة حتى تزنى معها .

إذن فقول الحق سبحانه وتعالى وهو ينقل لنا الحوار الذى سيدور بين إبليس وشياطين الانس :

﴿ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ فَٱسْتَجَبْتُمْ لِي ﴾

(الآية ٢٢ من سورة إبراهيم)

أى أنه لم يكن يملك سلطان القهر ولا سلطان الحجة ليجبرهم على المعصية . . ولكن شهواتهم التى فى داخلهم هى التى قادتهم لهذا . . عندما يتجه شياطين الانس إلى إبليس باللوم يقول :

﴿ فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنفُسَكُم ﴾

(الآية ٢٢ من سورة إبراهيم)

أى أنكم لو لم يكن عندكم استجابة فى داخل أنفسكم لما استطعت أن أغويكم . . فلا توجهوا لى اللوم . . بل وجهوه إلى أنفسكم .

﴿ مَّا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنتُم بِمُصْرِخِيَّ ﴾

(الآية ٢٢ من سورة إبراهيم)

والصراخ معناه طلب النجدة من مصيبة لا يقوى الانسان على مواجهتها بمفرده . . بل يريد أن يعينه الآخرون على أن يواجهها . . فإذا شب حريق فى البيت مثلا وكان الحريق صغيرا يمكننى أن أسيطر عليه . . فأنا لا أصرخ طالبا النجدة . . وإنما أقوم بإطفاء الحريق بامكانياتى مادمت واثقا أننى أستطيع . . ولكن إذا كان الحريق كبيرا فإننى لا أستطيع بقدراتى أن أتغلب عليه . . فإننى فى هذه الحالة أصرخ طالبا النجدة . . لأننى أواجه حدثا أقوى من قدراتى . . فأنا محتاج إلى عون الآخرين . . وإذا هاجمنى لص مثلا فى الطريق . . فإذا كنت قويا فأنا أقدر عليه وأمسك به وأقيده . . ولكن إذا كان اللص أقوى منى . . فأنا فى هذه الحالة أصرخ طالبا النجدة حتى يعيننى الناس عليه .

معنى الصراخ

حين يسمع الناس الصراخ فهم نوعان . . نوع لا يجد فى نفسه القدرة على أن يعين على هذا العمل ، فلا يذهب إلى الصارخ

لينجده .. كأن يهاجمنى لص قوى وأصرخ طالبا النجدة .. ويكون الذى يمر شيخ لا يكاد يقوى على السير .. حينئذ فإنه لا يجيب على صرختى ، لأنه لا يستطيع أن يقدم لى العون ، وهو ضعيف كبير السن .. ونوع آخر يجد فى نفسه القدرة على التدخل ، فيأتى إلى ويساعدنى فى أن أتغلب على ما لا أقدر عليه .. حينئذ يقال أصرخه فلان .. أى أزال سبب صراخه .. والشيطان فى يوم القيامة لا يستطيع أن يصرخ أحدا .. أى لا يستطيع أن ينقذ أحدا من النار .. ولا يستطيع أحد أن يصرخه ، أى ينجيه من العذاب الذى ينتظره .. لذلك يقول الشيطان للعاصين : لا أنا أستطيع أن أنجيكم من العذاب ، ولا أنتم تستطيعون أن تنجونى من الخلود فى النار .. فكلانا عاجز أمام قدرة الله سبحانه وتعالى :

ويمضى الحق سبحانه وتعالى ليكمل لنا أحد مشاهد يوم القيامة :

﴿ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَآ أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُ ۗ إِنَّ ٱلظَّـٰلِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٢﴾ ﴾

(الآية ٢٢ من سورة إبراهيم)

أى أن ما أغويتكم على أن تشركوا أنا كافر به .. لأنى أول من يعلم أنه زيف وكذب ، ولكنكم ظلمتم أنفسكم ، واتبعتم الزيف الذى قدمته لكم ، فجزاء الظالمين النار .

مشهد آخر من مشاهد يوم القيامة يوضحه الحق سبحانه وتعالى وهو الحوار الذى سيدور بين الكافرين فى النار :

﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ ﴾ **(من الآية ٣٣ من سورة سبا)**

الحوار هنا بين الكافرين . . جزء منهم هم المستضعفون الذين كانوا تابعين . . وجزء منهم هم المستكبرون أو السادة آلذين أغروا هؤلاء المستضعفين بالمعصية وفعل السيئات . . ماذا يحدث فى الحوار الذى يدور :

﴿ فَقَالَ ٱلضُّعَفَٰٓؤُاْ لِلَّذِينَ ٱسۡتَكۡبَرُوٓاْ إِنَّا كُنَّا لَكُمۡ تَبَعٗا فَهَلۡ أَنتُم مُّغۡنُونَ عَنَّا مِنۡ عَذَابِ ٱللَّهِ مِن شَيۡءٖۚ ﴾

(الآية ٢١ من سورة إبراهيم)

أى نحن كنا نتبعكم وكنا نفعل ما تأمروننا به وننفذ كل ما تطلبونه . . فهل تستطيعون أن تنجونا من عذاب النار أو تخففوه عنا . . هذا مظهر من مظاهر العجز البشرى يوم القيامة . . يرويه الله سبحانه وتعالى فى القرآن الكريم . . لنعرف أن هؤلاء الذين يغووننا على المعصية أعجز من أن ينفعونا يوم القيامة أو يخففوا عنا يوما من عذاب الله .

فمهما كان لهم من سلطان وقهر فى الدنيا فإن ذلك لن يغنى عنهم شيئا فى الآخرة . . ولن يعطيهم قدرة ولا قوة . . وفى ذلك نجد أن بعض الناس فى دفعهم الآخرين للمعصية يقولون لهم : أفعل هذا وأنا سأحمل وزرك يوم القيامة . . أنا سأحمل عنك الوزر . . ويكون هذا الكلام دفعا للنفس المترددة فى ارتكاب المعصية أن ترتكبها . . أياكم أن تصدقوا هذا الكلام .

صحيح أن هؤلاء الذين يغرونك بالمعصية سيحملون وزرا فوق أوزارهم أو معاصيهم . . ولكنك أنت مرتكب المعصية عليك

إثم ،وعليك عقاب ، وستحمل وزرك يوم القيامة . . ولذلك فإياك أن تصدق من يقول لك افعل هذا والاثم على . . أو افعل هذا وسأحمل وزرك . . بل على مشهد من أهل المحشر جميعا . . لن يستطيع هؤلاء الذين زينوا المعصية للآخرين أن يحملوا أوزار الذين ارتكبوا المعصية . . ويكون أولئك الذين ارتكبـوها بلا معصية . . بل هذا يحملها وهذا يحملها . . وعندما يقفون أمام الله للحساب يرينا الحق ماذا سيحدث :

﴿ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِندَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ ٱلْقَوْلَ ﴾

(الآية ١ من سورة سبأ)

أى هذا يلقى اللوم على هذا وهذا يلقى اللوم على هذا حتى تصبح الفضيحة علنية . . وترى المحبة التى كانت بينهم على الشهوات وعلى الكفر وعلى المعصية قد ذهبت وانتهت . . فهناك نوعان من المحبة فى الدنيا . . أناس أخذوا الحب فى الله يذهبون للمسجد معا ويتدارسون العلم معا ، ويسمعون القرآن معا . . وإذا ارتكب أحدهم معصية نصحه الآخرون ومنعوه . . ومحبة أخرى بين الناس الذين يتفقون على قضاء السهرة الليلة فى الخمر والميسر عند فلان . . أو قضاء ليلة فى الاثم عند فلان . . يشجع بعضهم البعض على المعصية فى مجالسهم . . هؤلاء أخلاء وهؤلاء أخلاء . . ولكن الذين اجتمعوا على الاثم والمعصية . . إذا وقفوا أمام الله هذا يلقى اللوم على ذاك . . وذاك يلقى اللوم على الآخر . . المحبة التى كانت بينهم على الشهوات انتهت . . والله سبحانه وتعالى يقول لنا لو ترون ماذا

سيتحقق فى الآخرة . . أولئك الذين كانوا فى الدنيا متفقين على الشر . . تجمعهم المعصية . . يتلاومون اليوم ويحاول كل منهم أن يلقى اللوم على الآخر . . ماذا يقولون ؟

﴿ يَقُولُ ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُواْ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُواْ لَوْلَآ أَنتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ ﴿٣١﴾ ﴾

(الآية ٣١ من سورة سبأ)

أى إن المستضعفين يحاولون إلقاء اللوم على سادتهم وكبرائهم . . فيقولون لولا أنتم وغوايتكم لنا وتزيينكم للمعصية لكنا قد اتبعنا طريق الهدى وجئنا اليوم آمنين . .

ماذا يقول الذين استكبروا ؟ . . أيوافقون على هذا الرأى ؟ . . طبعا لا . . فى هذا الموقف العظيم يحاول كل واحد أن يبرىء نفسه :

﴿ قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُواْ لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوٓاْ أَنَحْنُ صَدَدْنَٰكُمْ عَنِ ٱلْهُدَىٰ بَعْدَ إِذْ جَآءَكُم بَلْ كُنتُم مُّجْرِمِينَ ﴿٣٢﴾ ﴾

(الآية ٣٢ من سورة سبأ)

هنا يحاول كبراء القوم وسادتهم أن ينفوا عن أنفسهم تهمة أنهم أضلوا المستضعفين فيقولون لهم . . لو أن فى قلوبكم هداية لاهتديتم .

معـــنى الهـــدايـــة

ما معنى الهداية ؟ . . الهداية هى أقصر طريق يؤدى إلى الغاية . . والله سبحانه وتعالى قد أوجد فى الدنيا نوعين من الهداية . . هداية

دلالة وهذه للناس جميعا ، للمؤمن والكافر . . أى أن الله سبحانه وتعالى يبين للناس ، كل الناس ، طريق الهداية فى منهجه ، ويدلهم عليه بالرسل والأنبياء والصالحين وغيرهم . . يدل الناس جميعا على طريق الهداية ويبين لهم طريق الضلال . . حتى يعرفوا طريق الله ومنهجه . . ولا يأتوا يوم القيامة مجادلين . . وفى هذا يقول الله سبحانه وتعالى لرسوله الكريم :

﴿ وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٢﴾ ﴾ .

(الآية ٥٢ من سورة الشورى)

أى تبين للناس طريق الحق وتدلهم عليه . . فإذا اتبع الناس طريق الحق جاءت الهداية الثانية ، وهى الزيادة فى الهداية فيحببهم فى طريق الايمان . . فيزيدهم الله هدى ويعينهم عليه . . مصداقا لقوله سبحانه وتعالى :

﴿ وَٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ زَادَهُمْ هُدًى وَءَاتَىٰهُمْ تَقْوَىٰهُمْ ﴿١٧﴾ ﴾

(الآية ١٧ من سورة محمد)

هنا الحديث بين الذين استكبروا والذين استضعفوا عن هداية الدلالة . . فهم يقولون لهم :

﴿ أَنَحْنُ صَدَدْنَٰكُمْ عَنِ ٱلْهُدَىٰ بَعْدَ إِذْ جَآءَكُم ﴾

(الآية ٣٢ من سورة سبا)

أى أن الله سبحانه وتعالى قد بين لكم طريق الهداية ودلكم عليه . . ولو أنكم أردتم أن تسيروا فيه ما كان فى استطاعتنا أن

نخرجكم عنه أو نمنعكم . . ذلك لأننا مهما فعلنا فإن قوة الايمان فى قلوبكم . . كانت ستجعلكم تصرون على أن تسيروا فى طريق الهدى . . وكان الله سيعينكم على ذلك .

﴿ بَلْ كُنتُم مُّجْرِمِينَ ﴿٣٢﴾ ﴾

(الآية ٣٢ من سورة سبا)

أى أنتم بطبيعتكم وحبكم للشهوات كنتم تريدون الضلالة .. وكنتم تريدون المعصية . . فما إن أشرنا إليكم حتى انطلقتم إلى طريق الشهوات والمعاصى بطبعكم واتباعكم للشهوات . . وإلا لو كان فى قلوبكم هداية ما سمعتم كلامنا واتبعتمونا . . ويرد الذين استضعفوا مرة أخرى :

﴿ بَلْ مَكْرُ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ ﴾

(الآية ٣٣ من سورة سبا)

أى أنكم كنتم تقعدون لنا ليلا ونهارا . . لتزينوا لنا المعصية ، وتزينوا لنا الكفر ، وتزينوا لنا عبادة غير الله . . أنتم الذين كنتم ليلا ونهارا تأتون إلينا تعدوننا بالمال لنكفر . . وتعدوننا بالمكافآت لنرتكب المعاصى . . وتبينون لنا ليلا ونهارا طرق الاغراء على المعصية . . ولا تملون أبدا حتى استجبنا لاغرائكم وعصينا . . وهكذا نجد أن الله سبحانه وتعالى يقول :

﴿ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ ٱلْقَوْلَ ﴾

(الآية ٣١ من سورة سبا)

يعنى هذا يقول وهذا يرد عليه . . ويعود الأول إلى الكلام ويعود

الثانى إلى الرد .

وأزواجهـم ..

على أننا إذا انتقلنا إلى مشهد آخر من مشاهد يوم القيامة .. نأتى إلى قول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ ٱحْشُرُواْ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ وَأَزْوَٰجَهُمْ ﴾

(الآية ٢٣ من سورة الصافات)

أى أن بعض الذين ظلموا لن يحشروا وحدهم ، بل سنحشر معهم زوجاتهم .. لماذا جعل الله الزوجات يحشرن مع أزواجهن الذين ظلموا .. بل قدم الزوجات على الشرك فقال :

﴿ ٱحْشُرُواْ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ وَأَزْوَٰجَهُمْ وَمَا كَانُواْ يَعْبُدُونَ ﴿٢٢﴾ ﴾

(الآية ٢٢ من سورة الصافات)

إن الزوجات متقدمات عن أولئك الذين كانوا يعبدون .. ومعنى هذا التقديم أن الزوجات متقدمات فى الاغراء وفى التوجيه إلى الشر قبل الشيطان ، وما كان يزينه من عبادة غير الله .

الله سبحانه وتعالى يريد أن ينبهنا فى هذا إلى أن هناك فى بعض الأحيان شيطانا ملازما للرجل فى حياته ، ذلك الشيطان متمثل فى عدد من الزوجات اللاتى ينتهزن فرصة حاجة الرجل إليهن ، ويزين له طريق الاثم والانحراف ليفعل ما يردن .. فإن كن فى حاجة إلى المال أغرينه ليسرق أو يرتشى أو يختلس .. وإن كن فى حاجة إلى المجون والاستهتار أغرينه ليحضر الحفلات التى تملؤها المعصية ..

وإن كن يردن الحياة الناعمة الرتيبة أغرينه لارتكاب المعاصى كلها .. حتى يهيىء لهن هذه الحياة .. وإن كن يردن الانتقام من شخص ما أغرينه بالشر والكذب والتزوير وربما الجريمة ليصلن إلى هدفهن من شهوة الانتقام ولو بالزور والزيف .. ويطيع الزوج وينحرف ويفعل كل معصية .. يأتى الله سبحانه وتعالى ليفضح هؤلاء الزوجات يوم القيامة .. وعلى مشهد من خلقه جميعا وهم واقفون فى المحشر ينظرون .. فيصدر الأمر إلى ملائكته :

﴿ ٱحْشُرُوا۟ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ وَأَزْوَٰجَهُمْ وَمَا كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ﴿٢٢﴾ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَٱهْدُوهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْجَحِيمِ ﴿٢٣﴾ وَقِفُوهُمْ إِنَّهُم مَّسْـُٔولُونَ ﴿٢٤﴾ ﴾

(الآيات ٢٢ ، ٢٣ ، ٢٤ من سورة الصافات)

أى أوقفوهم فى مكان محدد حيث يكونون معروفين ومميزين من وسط الخلق جميعا .. لنسألهم عما فعلوا .. فكأنه فى هذه الحالة يكون الزوج والزوجة مسئولين معا عن الاثم الذى حدث .. الزوجة .. لها إثم وارتكبت معصية بالتحريض الذى قامت به والاغراء على الاثم الذى ظلت تطارد به زوجها وكأنها شيطان ملازم .. تأمره بالمعصية .. فإذا رفض جعلت حياته سوادا وجعلت معيشته جحيما حتى يذعن ويفعل ما تريد .. والزوج هو الآخر مسئول وإنه كان لابد أن يقاوم وأن يتخلص من هذه الزوجة التى تريد أن تعيش مع المعصية .. والتى تريد الثياب الفاخرة والزينة بصرف النظر عن الطريق الذى ستأتى منه هذه الأشياء .. وهذا أحد

الأسباب فى أن الله شرع الطلاق . . ولا عذر لأحد فى أن يطيع مخلوقا فى معصية الخالق .

وهنا فى هذا الموقف تظهر العداوة بين الزوج وزوجته . . ويحاول كل منهما أن يتهم الآخر . . وحينئذ يقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ مَا لَكُمْ لَا تَنَاصَرُونَ ﴿٢٥﴾ ﴾

(الآية ٢٥ من سورة الصافات)

أى أنكم كنتم حزبا واحدا . . كنتم يدا واحدة . . كان كل منكم يسرع إلى نجدة الآخر ، والوقوف معه على الباطل . . فمالكم اليوم لا ينصر كل منكم الآخر . . بل تقفون أمام الله لا يستطيع أحد منكم أن ينصر الآخر . . ثم يقول الحق :

﴿ بَلْ هُمُ الْيَوْمَ مُسْتَسْلِمُونَ ﴿٢٦﴾ ﴾

(الآية ٢٦ من سورة الصافات)

لماذا استسلموا ؟ . . مع أنهم كانوا فى الدنيا يتعاونون على الاثم والعدوان . . وكانوا لا يستسلمون لشىء فإذا تعذر عليهم الحصول عليه عن طريق الرشوة أسرعوا إلى طريق الاختلاس أو إلى أى طريق آخر على أن هناك تساؤلات لابد أن نجيب عنها . . ومن هذه التساؤلات حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم :

(لا يدخل أحدكم الجنة بعمله إلا أن تدركه رحمة الله قالوا ولا أنت يارسول الله قال ولا أنا ألا أن يتغمدنى الله برحمته) .

فإذا كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يخبرنا بأننا لن ندخل الجنة

إلا برحمة الله وفضله . . فلماذا إذن الحساب مادامت أعمالنا لا تدخلنا الجنة . . وما معنى الحديث الشريف . . وهل هناك حساب للأنبياء فى يوم القيامة . . وما معنى قول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ وَجِاْىٓءَ بِٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَقُضِىَ بَيْنَهُم ﴾

(الآية ٦٩ من سورة الزمر)

وكيف سيقيد الكفار بالسلاسل يوم القيامة . . والحوار الذى سيدور بين أهل الجنة وأهل النار . . وهذا هو ما سنتناوله فى الفصل القادم إن شاء الله .

محتويات الكتاب

رقم الايداع ٣٣٣١ / ٩٣
I. S. B. N
977 – 08 – 0184 – 4